بسم الله الرحمن الرحيم

الدين .. ونظام حركة الحياة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ، وبعد :

فقد تَلقَّيتُ فى بَحْر هذا العام سبعة عشركتابًا ، كلها من بلاد إسلامية ، وهذه الكتب تشترك فى سِمَة واحدة ، هى : ما وصل إلى هذه البلاد من تشكيكات فى دينها . مَرّة يتصل ذلك بأصل الدين ، والإيمان بإلهٍ قادر يُدَبِّر ذلك الكون .

وبعضها يتسم بالتشكيك فى أمر الوحى ، وفى أمر القرآن ، وفى رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومرة يأتى التشكيك فى نظام الإسلام وعدم صلاحيته لقيادة حركة الحياة فى ذلك العصر .

ولقد عرفت مصدر كل ذلك ، فالمصدر الإلحادى الذى يتسم بنفى الإله القادر الخالق المدبر للكون لا شك أنه قد وفد إلينا من الشرق ، ومن الشرق الشيوعى .

وأما ما يتعلق بالتشكيك فى أمر القرآن ، وأمر رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فمصدره الغرب ؛ لأن رائحة الكلام الذى فيه تدل على أنهم يشككون فى الإسلام ، ولكنهم يؤمنون بدين يأتى من الله بواسطة رسل .

وقد شاء الله أن يُفسِّر لى ذلك اللغز بما وصلنا من أخبار عن مؤتمرات :

عُقد أولها : في نيسان سنة أربعة وسبعين .

وعُقد الثاني : في ولاية كاليفورنيا في بلدة اسمها باسنديا في سنة سبعة وسبعين .

وأيضا مؤتمر آخر عُقد في كولورادوا . وهذا المؤتمر الأخير ضم حصيلة المؤتمرات التي سبقته . ويدل على أن وراء ذلك قوة هائلة بشرية ومادية ودولية ؛ وأن الذين دُعُوا إلى هذه المؤتمرات صفوة المفكرين في هذه البلاد ، وعلى رأسهم أساتذة الاستشراق في العالم ، وعلماء متخصصون في علوم الاجتماع يدرسونها في الجامعات ، وعلوم الأنساب وعلوم السلالات ، ومع ذلك : مختصون متمرسون بدراسة الأحوال الاجتماعية في الأمم النامية .

وقد ارتقت كل هذه الآراء والمباحثات إلى توصيات أُعلنت ، وتوصيات أخرى سُتِرت .

وقد عُرض ذلك الكتاب الذي يحمل كل هذه الأفكار على مجمع البحوث بالأزهر ليدرُسَه ، وليضع له ما يمكن أن يكون سدًا ذريعًا بين تحقيق هذه الأفكار .

ولما راجعت الكتاب وجدت كثيرًا من الإشكالات التي كتبها الغُيُر على دينهم الإسلامي تأخذ حظًا من هذه الأشياء ؛ مما يدل على أن أجهزة التبشير قد باشرت مهمتها .

لذلك استخرت الله وجعلت لقائي هذا العام في شهر رمضان منصبا على ما يمكن أن يُثار بواسطة هذه العمليات الضخمة الواسعة المستفيضة لنأخذ كل قضية من القضايا التي تُثار نبحثها على حدة ، حتى نُرَبِّي مناعة في النفوس الإسلامية الإيمانية تستطيع لا أقول ترفض هذه الآراء ولكنها تَبصُق على هذه الآراء .

أما الموجة الأخرى التي وصلت إلينا من الشرق : فأمرها معلوم ؛

لأنها تُشكك فى طبيعة الدين وفى أصلِه ، سواء كان إسلاميا أو مسيحيًا أو يهوديًا ، وذلك أمرٌ يُراد به نفى القَدَاسات عن أشياء يعتقدها الناس لِيُسَيِّروا حركة حياتهم على منهجها ، وبذلك يَخْلو الجو للمريدين للتسلط على القرى ، والمتسلطين على الحكم ، حتى لا يجدوا مُنَازعًا لهم ، لا من قوانين السماء ولا من قوانين الأرض .

وإذا كان الأمر سيصير منطقيًا ، فإننا نتكلم أولاً لنرد وافدة الإلحاد عن أبنائنا المسلمين وكل ما يمكن أن يدور فى فلكها من فكر ، إنما هو لمناقشة النظام الذى جاء به الإسلام ؛ ولكن مناقشة النظام الذى جاء به الدين الذى يسبق الإسلام ؛ لأنهم يقولون : لا نجد فى ذلك نظاما يحكم حركة الحياة ، وهم صادقون فى ذلك ، ولكنهم لو امتد بهم البحث قليلاً ووصلوا إلى مجىء الإسلام وإلى ما فيه ، لوجدوا الشىء كل الشىء عن حركة الحياة وتنظيمها بما لا يمكن أن يتفوق عليه قانون بشرى أو وضعى .

لذلك نقول لهم : إنكم قاصرون حتى فى دراسة الأديان التى تهاجمونها ، فالمسيحية لم تأت لتُنظم حركة حياة ، ولكنها جاءت لتعطى شُحنة إيمانية وجدانية ، وهذه الشحنة هى التى كانت مفقودة عند اليهود ، فاليهود صَوَّرُوا الأمر كله أمرا ماديا ؛ لدرجة أنهم أرادوا أن يجعلوا الله جسما يجرى ويضع رجليه على قصعة ، وقالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : ٥٥] . فهم أرادوا فى إله الغيب أن يكون أمرًا ماديًا ، كذلك جاءوا إلى كل النظم وجعلوها مادية .

وقلنا سابقًا : إنك إذا استعرضت التوراة بطولها وبكل أسفارها ، فلن تجد شيئًا يتعلق باليوم الآخر أبدا .

إذن . . فالمسيحية لم تجئ لتنظم حركة حياة ، حتى يُقال فى الشيوعية : إنها دين لا ينظم حركة الحياة ، ونحن جئنا لننظم حركة الحياة .

فإذا كنتم تُريدون تنظيم حركة الحياة ، فلماذا بعدتم عن دراسة الإسلام كدين ؟!

إذا قلنا لهم ابحثوا نظام الإسلام كدين ، قالوا : إن مصدر الإسلام الذى تُرجع إليه كل هذه المناهج مصدر خرافى لا وجود له!!

فكأنهم ينقلون البحث من بحث نظم الإسلام إلى المصدر الذى جاء منه الإسلام .

وما دمت تقول إن الدين الذى تقولون به جاء من إله خرافى ، ما لك بالإله الخرافى ، إنك جئت بنظام وقلت إنه من عندك ، فخذ هذا النظام وقارنه بنظامك ولو على أنه حصيلة فكر إسلامى نسب إلى إله . أنتم تقولون إنه خرافى .

فناقشوا إذن قضية النظام نفسها ، وابتعدوا عن مصدر ذلك النظام ، وما لكم به أى مساس ؛ لأننا لا نريد أن تؤمنوا بهذا الإله ؛ ولكنّ نريد أن نقارن نظمكم بنظمنا ، ونظمنا التى نقول نحن إنها من الله ، وأنتم تقولون إنه لا إله ، ما لكم ومصدرها ناقشوا النظام بالنظام .

فإذا ما جئتم إلى أى جزئية من جزئياتكم لتبحثوها وجدنا التطبيق يفسد قولكم ، التطبيق الذى طُبق من سنة سبعة عشر إلى الآن فى كل دولة من الدول التى وقعت تحت سيطرة هذا النوع من الفكر ، إنها لم تؤد لها ثمرة بل بالعكس أدت إلى خراب .

وإذا ما نظرنا إلى هذه النظم وجدنا أن الإسلام يأتى بالرحمة الهينة اللينة ليُنشئ جيلاً مبنيًا على شيء من الهوادة ، لا شيء من العنف ، فهو حين يريد كما تقولون وتدَّعون : إنكم نظمتم حركة الاقتصاد للإنسان فى الأرض ؛ نقول لكم : لا . إنكم لم تنظموا حركة الاقتصاد للإنسان فى الأرض ، ولكنكم عمدتم إلى حصيلة جهد أناس لتفرقوها على أُناس لم يجدُّوا ولم يجتهدوا ، وكان من الأصل أن تجعلوا الناس جميعا سواء فى الحركة إذا

أردتم أن يكونوا جميعا سواء فى المحصول والانتاج والغلة ، ولكنكم أخذتم من قوم تعبوا لتعطوا قوما لم يتعبوا . ثم لم ترضوا بهذا أيضًا لأنكم حُكمتم بقضية الماركسية .

هذه القضية هى : الدعوى ونقيض الدعوى ، والجامع بين الدعوى ونقيضها .

الدعوى كانت رأسمالية . فالنقيض جاء ليأخذ السلطة ويعطيها للعمال ضد الرأسمالية .

ولكن العمال بشر أيضا ، قد يأخذون هذه السلطة وبعد ذلك يطغون فيها كما طغى أصحاب أقطاب الرأسمالية .

فقلتم : لا ، لابد من أن توجد هيئة تجمع بين الدعوى وبين نقيض الدعوى فى يد واحدة ، هى اليد الحاكمة فقط . فأصبحت اليد الحاكمة عندكم هى التى تملك الثروة وتتحكم فى العامل ، ولا سلطان لأحد فى حرية أو حركة .

للكون إله

انتهينا فى الفصل السابق إلى مناقشة الفكرة الواردة لنا من الشرق وهى أن الأديان ما جاءت لتنظم حركة الحياة ؛ ولذلك كانت الثورة الشيوعية تصحيحا لكل هذه الأفكار لتنظم اقتصاديات الحياة!

وقلنا : إنهم جعلوا الأمر خاضعا لنظرية فلسفية هى : الدعوى ونقيض الدعوى - أى : مقابلها - والجامع بين الدعوى ونقيضها .

فقلنا : إن الدعوى هى الرأسمالية . يُقابلها : العمالية .

وبعد ذلك قالوا : الرأسمالية فى أيدى أناس إذا استبدت بالأموال ، فكذلك قد يستبد العمال بالعمل . وحينئذ يوجد شيء اسمه السيطرة الموجهة .

إذن . . لابد أن توجد هيئة تجمع بين الدعوى وهى الرأسمالية ، وبين المقابل وهى العمالية فى جهة واحدة هى يد الأحزاب التى تسيطر مطلقا .

فنقول لهم لرد هذا حتى نعطى الجيل الإسلامى الناشئ خميرة يمكن أن يرد بها على كل هذه الواقدات :

إن الثورة التى بدأت فى سنة سبعة عشر وأشاعت ميادئها ادّعت فيما أشاعته أنها إنما جاءت لا بالشيوعية المرادة التى يحبون أن يؤصلوها فى المجتمع ، ولكن بمقدمة للشيوعية ، وهذه المقدمة هى الاشتراكية .

إذن . . فهم لم يدخلوا فى النظام الشيوعى ، ومعنى ذلك : أن النظام الشيوعى أفضل من الاشتراكية فيما يريدون .

فنقول لهم : إذا كنتم قد قلتم بهذه المقدمة لتمهدوا للشيوعية فانظروا : أتقدمتم إلى الشيوعية أم تأخرتم حتى عن الاشتراكية ؟ إنكم

فوجئتم بواقع الحياة يصوب أخطاءكم ورعونتكم ، فوجدتم أن النفعية الذاتية فى الشخص قد انطفأت جذوتها ، ولم يعد هناك وازع فى النفس للعمل .

وما دام الأمر سيتركز فى أن كل فائض يؤخذ فلا داعى لأن يجهد الإنسان نفسه إلا بمقدار حاجته .

والطموحات البشرية لا تجيء فى كل الأفراد . الطموحات البشرية تأتى فى أفراد معدودين فى كل جيل وفى كل مجتمع وفى كل عصر .

فإذا كانت المنفعة الذاتية هى التى تسيطر على حركة الإنسان - إقبالاً ودأبًا وإخلاصًا وغيرة - لأن كل ذلك سيعود عليه وعلى من يعول ، فقد فقد هذا المشجع ، أى : هذا الحافز فى نظامكم ، مما أدى إلى أن البلاد التى كنتم تصدرون إليها حبوبكم أصبحتم أنتم تستوردونها من الخارج .

فهذا يدل على أنكم لابد أن تتراجعوا فى النظام ليكون أقرب إلى الطبيعة .

هذا النظام الذى يوجد أقرب إلى الطبيعة هو : أن تستغل حُب الذات فى النفس البشرية لتُعطى له حافزا يجعله يعمل .

وإن لم يكن المجتمع فى باله ، فإنه إن عمل ولو بنفسه ولم يكن حتى المجتمع فى باله فإنه سيدخل المجتمع قهرًا عنه .

فهب أن إنسانا يريد أن يبنى عمارة فخمة ، وعنده من المال مال مكنوز ، ويحب أن يبنيها ، يُدخل الله على نفسه خاطرًا من خواطر الاستثمار والنفع الذاتى ، فيقول : ومالى لا أستغل هذا المال المكنوز فى بناء عمارة تُدِرُّ على كذا وكذا وكذا ؟! ويضخم له الأمل فيما يأتى من هذه العمارة ، ذلك بحث ذاتى بحت لا يتعدى حدود النفع الضيقة . وإن تعدّى فإنما يتعدى إلى ولده وإلى القريب من أهله .

نقول له : نعم ، إن المجتمع سيصيب من ذلك أردت أو لم تُرد!! كيف ؟!

إن الذى يحفر الأرض لوضع أُسس العمارة سيستفيد ، والذى يضرب الطوب لتبنى عمارتك سيستفيد ، والذى يعمل فى مصنع الأسمنت سيستفيد ، والذى يعمل فى البناء سيستفيد ، والذى يعمل فى نقل التراب ومواد البناء وخلافه سيستفيد ، والذى يعمل فى الكهرباء سيستفيد ، والذى يعمل فى الأدوات الصحية سيستفيد ، والذى يعمل حتى فى الجماليات الكمالية كالديكور وغيره سيستفيد .

فإذا ما نظرت إلى العمارة بعد أن أقيمت ، تجد أن كل ما لهذه العمارة قبل أن ينتفع بها صاحبها انتفع بها كل المجتمع استطراقًا من أفقر طبقة فيه إلى أوسط طبقة .

إذن . . فالحركة الذاتية فى النفع الذاتى نريد أن توجد ولو لم يكن فى بال من يتحرك المجتمع فإن المجتمع سيستفيد قهرًا عنه ، رضى أو أبى .

إذن . . فأنتم اضطررتم إلى أن تُدخلوا نظام الحافز . إذن . . فأنتم لم تتوسعوا من الاشتراكية إلى الشيوعية ؛ وإنما رجعتم حتى عن بعض أبواب الاشتراكية .

ومعنى أنكم رجعتم أن هناك فكرًا شرسًا قد هيأ لكم أمرًا ، أو برر لكم أمرًا لتسيطروا على ناصية الحكم فى البلاد ، وتستذلوا الناس ؛ لأنكم جعلتم لُقمة العيش التى تقيم حياتهم فى أيديكم ومعكم قوة الحكم .

إذن . . فأنتم تراجعتم قهرًا عنكم . . فأوجدتم الحافز ليوجد شيء من الحركة الهادفة النافعة المؤملة الطموح .

فإذا كنتم قد رجعتم عن الاشتراكية التى ادعيتم أنكم إنما جئتم بها كمقدمة للشيوعية .

إذن . . فهذا تراجع ، هذا نقيض الدعوى أى : مقابلها . وإذا ما نظرتم إلى الدعوى الأصلية لأنكم فعلتم ذلك لتخلصُوا الدنيا من شراسة رأس المال ، فلننظر فى الجهة المقابلة إلى شراسة رأس المال ، أبقيت على

شراستها أم أُعطى العمال الحقوق وأعطوا الراحات ، وأعطوا المكافآت ، وأعطوا التأمينات .

إذن . . فلا الرأسمالية سارت فى شراستها ، ولا الشيوعية سارت فى شراستها . تلك مخطئة وهذه مخطئة . والواقع كذّب الاثنين معًا .

إذن . . فلابد أن تتنازل الرأسمالية عن شراستها ، وأن تتنازل الشيوعية أيضًا عن شراستها .

ومعنى تنازل طرفين متقابلين : أن يتواجها دون أن يتدابرا ، وإذا ما تواجها التقيا فى منتصف الطريق ، ومنتصف الطريق هو الذى جاء به الإسلام[1] .

---

(١) وصدق الله العظيم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] . قال القرطبى : قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ المعنى : وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطا ، أى جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم .

والوسط : العدل ، وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها .

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قال : « عدلا » . قال : هذا حديث حسن صحيح[1] .

وفى التنزيل : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أى : أعدلهم وخيرهم .

وقال زهير :

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم ... إذا نزلت إحدى الليالى بمعظم

وقال آخر :

أنتم أوسط حى علمنا ... بصغير الأمر أو إحدى الكبر

وقال آخر :

لا تذهبن فى الأمور فرطا ... لا تألن إن سألت شططا

وكن من الناس جميعا وسطا

ووسط الوادى : خير موضع فيه وأكثره كلأ وماء .

ولما كان الوسط مجانبا للغلو والتقصير كان محمودا ، أى هذه الأمة لم تغل غلو النصارى=

---

(١) رواه الترمذى [٢٩٦١] وقال الألبانى : صحيح .

إذن . . لو أنكم أنصفتم لوجدتم الإسلام صحح شراسة الرأسمالية وصحح شراسة الشيوعية . ولو أنصفتم لجعلتم من هذا النظام مُنقذًا لكم مما تورطتم فيه ، سواء كان التورط جاء من جهة الغرب فى رأسمالية : أو كان التورط جاء من الشرق فى فكرة شيوعية .

فإذا ما أردت أن تقارن نظاما بنظام أبقى الحافز وأشاع الخير الفاضل من الحركة الإنسانية وجدت أنهم أُحرجوا فذهبوا إلى شىء آخر لا يدخل فى مقام المناظرة ، ولا فى مقام الجدل ، ولا تقوم به حُجَّة . وهو : أنهم فروا من مناقشة النظام ومقارنته بنظام إلى الكلام فى مصدر هذا النظام .

يقولون : الكلام الذى تقولونه يا أيها المسلمون كلامٌ جئتم به من شىء خُرافى!!

والجواب : كيف تقولون من شىء خرافى ؟! إنه شىء موجود أولاً ، كونه ممن ؟ هذا أمرٌ لا يعنيكم . فقارنوا نظاما بنظام ، وقد قارنتم ففشلتم ، وتبين تفوق النظام الإسلامى على نظمكم جميعًا ، وأسبقيته وتميزه ، وأنه لا إجلال فيه لأحد على أحد [1] ، لأن بشرًا لم يدع أنه أتى به ليستذل به رقاب

= فى أنبيائهم ، ولا قصروا تقصير اليهود فى أنبيائهم . وفى الحديث : « خير الأمور أوسطها » [1] . وفيه عن على رضى الله تعالى عنه : « عليكم بالنمط الأوسط ، فإليه ينزل العالى ، وإليه يرتفع النازل » [2] .

وفلان من أوسط قومه ، وإنه لواسطة قومه ، ووسط قومه ، أى من خيارهم وأهل الحسب منهم .

(١) وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

جزء من حديث رواه أحمد فى المسند [٥/ ٤١١] عن أبى نضرة قال : حدثنى من سمع خطبة النبى ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح والطبرانى فى الأوسط [٥/ ٨٦/ ٤٧٤٩] =

---

(١) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه [٧/ ١٧٩/ ٣٥١٢٨] عن مطرف قال : « خير الأمور أوساطها » ، والبيهقى فى الكبرى [٣/ ٢٧٣/ ٥٨٩٧] عن عمرو بن الحارث وهو مقطع .

(٢) ذكره الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء وقال : أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث موقوفا على على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، ولم أجده مرفوعاً .

الناس ، أو ليعتز به ، أو ليحاول أن يجد لنفسه مكانا ؛ لأنهم يقولون ليس من عندنا ولكنه نظام من عند الله[١] .

= لا يروى عن أبي سعيد إلا بهذا الإسناد تفرد به سهل ، والبزار في مختصر الزوائد [١٧٤٥] . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [٨/ ٨٧] وقال : رواه الطبراني في الأوسط والبزار بنحوه إلا أنه قال : إن أباكم واحد ، وإن دينكم واحد أبوكم آدم وآدم من تراب . ورجال البزار رجال الصحيح . وانظر مجمع البحرين [٣١١٦]

(١) أحسن كلام يحضرني في هذه المناسبة هو ما دار بين الصحابة رضوان الله عليهم والفرس ، ونقله الحافظ ابن كثير في كتابه العظيم : البداية والنهاية ، في غزوة القادسية سنة أربعة عشرة للهجرة :

لما تواجه الجيشان بعث رستم قائد الفرس إلى سعد أمير جيش المسلمين : أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه . فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه ، فلما قدم عليه جعل رستم يقول له : إنكم جيراننا ، وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم ، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا .

فقال له المغيرة : إنا ليس طلبنا الدنيا ، وإنما همنا وطلبنا الآخرة ، وقد بعث الله إلينا رسولاً ، قال له : إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني ، فأنا منتقم بهم منهم ، واجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به ، وهو دين الحق ، لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به إلا عز .

فقال له رستم : فما هو ؟ فقال : أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به : فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله

فقال : ما أحسن هذا !! وأي شيء أيضاً ؟ قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله .

قال : وحسن أيضاً ، وأي شيء أيضاً ؟

قال : والناس بنو آدم وحواء فهم إخوة لأب وأم .

وقال : وحسن أيضاً . ثم قال رستم : أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا ؟

قال : أي والله ، ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة .

قال : وحسن أيضاً .

قال : ولما خرج المغيرة من عنده ذكر رستم رؤساء قومه في الإسلام فأنفوا ذلك ، وأبوا أن يدخلوا فيه قبحهم الله وأخزاهم وقد فعل .

قالوا : ثم بعث إليه سعد رسولاً آخر بطلبه ، وهو ربعي بن عامر رضي الله تعالى عنه ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة ، والزرابي الحرير ، وأظهر اليواقيت ، واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل=

فابتدأوا يناقشون فكرة : « الله » هذه .

نقول لهم : ذلك فرار من ميدان المناظرة وميدان الجدل ، مالكم وللإله الذى قلنا إننا جئنا بالنظام منه ؟!

ناقشوا النظام وهبوه نظاما بشريا بنظام بشرى ، ومع ذلك فنحاول أن ندخل معكم فى شىء من الجدل حتى لا تظنوا أننا فررنا من نقاش هذه المسألة .

= راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه .

فقالوا له : ضع سلاحك .

فقال : إنى لم آتكم ، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت .

فقال رستم : ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها . فقالوا له : ما جاء بكم ؟

فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله .

قالوا : وما موعود الله ؟

قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى .

فقال رستم : قد سمعت مقالتكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟

قال : نعم!كم أحب إليكم ؟ يوماً أو يومين ؟ قال : لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا .

فقال : ما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فانظر فى أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل .

فقال : أسيدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم .

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟

فقالوا : معاذ الله أن تميل إلى شىء من هذا ، تدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال : ويلكم لا تنظرون إلى الثياب ، وانظروا إلى الرأى ، والكلام والسيرة ، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل ، ويصونون الأحساب .

ثم بعثوا يطلبون فى اليوم الثانى رجلاً ، فبعث إليهم حذيفة بن محصن رضي الله تعالى عنه فتكلم نحو ما قال ربعى . وفى اليوم الثالث المغيرة بن شعبة ، فتكلم بكلام حسن طويل .

إنكم تقولون : إن الإله الذى نسبتم إليه هذا النظام إله لا وجود له ، وأن العالم يسير هكذا بطبيعته . . . إلخ . من هذا الكلام الذى أصبح الرد عليه فى طرف السياق .

ونقول لكم : لو أنكم نظرتم إلى نظامكم فى ذاته أيدعى أحدٌ أن النظام هبط عليه من دون مُقَنِّنٍ له ؟!

إنكم قلتم : ماركس ، قلتم : لينين ، إذن . . فالنظام الذى وجد ما استطعتم أن تنسبوه إلى قوة خفية ولكنكم نسبتموه إلى قوة مادية من جنس ذواتكم .

فنظام جاء من عندنا ومتميز عما عندكم ألا تحبون أن ننسبه إلى أحد كما نسبتم أنتم نظمكم إلى أحد وحاولتم أن تجعلوا منهم آلهة ؟!

إن النظام الذى جئتم به لم تقولوا إننا وجدناه هكذا بطبيعته ، ولكنه وجد بأساتذة و . . . و . . . إلخ ، وفلاسفة ومدارس و . . إلخ .

فإذا كان هذا النظام الذى أصبح مرجوحًا بعد مقارنته بنظام الإسلام ؛ لم يجئ بطبيعته ووجدتموه هكذا!!

النظام الذى يتفوق عليه - أو على الأقل يساويه - تقولون إنه جاء هكذا من غير أحد ؟!

يقولون : لا ؛ إنه جاء من أحد مثلنا .

نقول : إن الذى يأتى بشىء عزيز لا يمكن أن يتملص منه لينسبه إلى غيره ، لأن الناس تتصيد كمالات غيرها فتنسبها لنفسها ، فإذا ما وجد عنده كمالا وإن إنسان منا جاء بهذا النظام ، أإذا جاء بنظام ينسبه إلى شىء آخر ويقول له : أنا لم أصنعه ؟!

إن الإنسان منا يدعى ما ليس له ، ومثل هذه الكمالات تُترك بلا دعوى ، فإذا كانت قد تُركت بلا دعوى ، وأن الذين يحملون هذا النظام

يريدون أن يرتفعوا بالنظام عن مستواهم ، ويقولون لا ليس من عندنا وإنما هو من عند إله قوى قادر خالق .

فلو أنه كان من عندهم لقالوا كما قلتم أنتم ومجدوا الذين جاءوا بهذا النظام .

إذن . . فقولكم إن هذا شيء خرافى ، شيء لا يعنيكم ولا يدخل فى النقاش ولا يدخل فى الجدل .

وأيضا فإنكم لو نقلناكم نقلة قبل وجود النظام . . الذى تحكمون به لم يكن موجودًا ووجد ، ووجد بموجد . قلتم عنه إنه فلان وفلان وفلان .

إذن . . فكل شيء يوجد ويطرح فى عالم الوجود لابد أن يكون له موجد .

ما دمتم أنتم أتيتم بنظام لم يكن موجودًا قبل سنة سبعة عشر وتسعمائة وألف ، هذا النظام لم تجدوه هكذا مطروحًا بدون أحد ولكن عرفنا أن أوجده موجد ، إذن . . فكل شيء يمكن أن يكون أثرًا لابد أن يوجد له مؤثر أوجده .

فالضجة التى قمنا بها كدين وكإسلام قاد حركة الحياة وانتصر على الفرس وانتصر على الروم ؛ وجد هكذا بلا موجد ؟!

دعوا النظام الذى يحكم حركة الحياة ، وابحثوا فى الحياة ذاتها ، قبل أن تبحثوا فى نظام ينظم حركة الحياة ، ابحثوا فى الحياة نفسها .

هذه الحياة التى توجد على ظهر الأرض فى صور مختلفة ، أيُعقل أن توجد هكذا بدون موجد ؟!

لو أن إنسانًا ما كان فى مفازة[1] ولا يجد ماء ولا قوتا يقوت به حياته ، ثم استيقظ فجأة فوجد مائدة عليها أطايب الطعام الذى يقوته ، وأطايب الشراب الذى يسقيه . أظنه قبل أن يتناول شيئا منها يستفيد به لابد أن يسأل

---

(١) صحراء .

فكره ، من الذى أوجد هذا ؟ ويحمل عينيه على أن تبحث فى الوجود حوله لترى من أمدّه بهذا ؟

فإن كان جائعًا ومعجلاً وأكل ، أظنه بعد أن يشبع لابد أن يفكر من أحضر له هذا الطعام فلم يجد أحدًا أبدًا يقول له أنا الذى أحضرته . فإذا ما ارتفع صوت من بعيد ليحل له اللغز وقال له : أنا الذى فعلت لك ذلك . هو يطلبه ، يطلب من فعل ، والفاعل قال : أنا فعلت ، ولم يوجد أحد حوله يعارضه فى هذه الدعوى ، ألا تصح الدعوة له ويصبح هو صاحبها ؟!

محمد صلى الله عليه وسلم
مبلغ عن الله

انتهينا في الفصل السابق عند إفحام الذين يقولون : بلا إله ، بما استدللنا به على أنهم نظموا حركة للحياة بمفكر من البشر .

وهذه الحركة التي قاموا بها كانت نتيجة أبحاث فكرية لقوم سموهم فلاسفة هذه الثورة .

إذن . . فالنظام لم يجئ من ذاته وإنما جاء بواسطة أناس .

إذن . . فوجود الأثر لابد أن يسبقه وجود مؤثر ، فلو أنهم نظروا إلى الوجود حولهم قبل أن يوجد منهم ذلك النظام ، لوجدوا نظاما يحكم حركة الحياة ، قد يكون من وضع البشر ، وقد يكون من بقايا أديان دَرَست .

نقول لهم : تجاوزوا عن ذلك ، وانظروا إلى الأشياء الثابتة في الوجود التي طرأ عليها النظام . فالنظام جاء ليحكم حركة حياة .

إذن . . فابحثوا عن الحياة قبل أن تبحثوا عن نظام حركة الحياة .

ومادمنا قد استدللنا على أن كل أثر لابد أن يسبقه وجود مؤثر ، وقد سبق وجود نظام لكم تحكمون به نظام الحياة الاختيارية ؛ وجود مؤثرين أصحاب مدرسة وضعوا ذلك النظام ، انقلوا البحث إلى ما فوق ذلك ، وابحثوا في المنظم له .

المنظم له : هو حركة الحياة بالنسبة للإنسان . والإنسان ليس وحده في هذا الوجود الذي نظمتم له حركة ؛ لأن الإنسان إنما هو جنس من أجناس كثيرة . وأنتم نظمتم للإنسان ، ولكنكم لم تنظموا شيئًا لبقية الأجناس . فما الذي يجعل نظام الأجناس غير الإنسانية نظاما لا يوجد له

موجد لأنكم لم تدَّعُوه . وهذا النظام أيضا عائد فى أُخريات أموره إلى الإنسان .

فالإنسان جنس ، وهو كما قلنا سابقا : جنس أعلى ، ومعنى أنه جنس أعلى يعنى : لا يوجد فى الوجود المرئى للإنسان جنس آخر يفوقه فى خصائصه .

أقول فى المرئى لأنه قد يوجد جنس غيبى أعلى مرتبة من الإنسان .

إنما أنا أتكلم عن الإنسان المرئى المشهود فى عالم المُلك ، ولا أتكلم عن الأشياء التى توجد فى عالم الغيب وعالم الملكوت ؛ لأن ذلك أمرٌ لم نعرفه إلا عن طريق الدين ، وطريق الدين هو الطريق المختلف فيه ، وما دمنا مختلفين فيه فلا يصح أن نحتج به عندكم .

إذن . . فالإنسان جنس فى الكون ، وجنس أعلى ، لأن الأجناس المرئية هى دونه ؛ دونه فى التكوين المُشخص ، ودونه فى المهمة .

فالإنسان إذا نظر وجد نفسه حيا متحركا حساسا ، ووجد جنسا آخر حيا ومتحركا وحساسا وهو الحيوان الذى دونه .

ولكن الإنسان يدل على الحيوان لأنه يفكر ، ومعنى يفكر أنه يختار بين بديلات متعددة .

الحيوان لا يختار بين بديلات ، الحيوان محكوم ، لا بنظام بشرى ولكن بنظام قهرى وجد فى غريزته ، لم يتعلمه أبدا ، لم يجلس إلى معلم ليعلمه كيف يأكل ، لم يجلس إلى معلم ليعلمه كيف يشرب ، لم يجلس إلى معلم ليعلمه كيف يتقى البرد ، لم يجلس إلى معلم ليعلمه كيف يبنى لنفسه أوكارا ، أو أعشاشا أو . . . إلخ .

وإنما أمر جاء فيه بالغريزة ، وهو محكوم بالغريزة القسرية القهرية .

والغرائز القسرية القهرية دائما لابدائل لها ؛ إنها أمر واحد ، فأنت مثلاً إذا ضربت قطة ؛ فإنها ترد عليك ردا واحدا ، ولكنك إن ضربت إنسانا ،

فعنده ردود متعددة ، قد يضربك ضربة دون ضربتك ، أو ضربة مثل ضربتك ، أو ضربة فوق ضربتك . وقد يسخر منك ويهزأ أو يعفو ، وقد يحسن إليك .

إذن . . فهناك بدائل متعددة ، ما الذى أدار هذه البدائل واختار أرجحها ؟ إنما هو الفكر . تلك هى ميزة الإنسان عن الحيوان .

الإنسان منا يأكل كما نقول دائما فإذا ما جاء له عزيز وعرض عليه بعد شبعه لونا من الطعام فإنه يأكله أيضا ، ويأتى ثالث فيأكله أيضا ، ولكنك إن ذهبت إلى الحيوان بعد أن شبع فتحمل عليه بكل ألوان القسوة على أن يأكل عودا من البرسيم مثلاً فوق طاقته ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ؛ لأنه محكوم بحكم الغريزة التى لا تُجامل الغريزة التى لا بدائل عندها .

إذن . . فالإنسان متميز بالفكر ، والفكر يجعله أمام بدائل متعددة .

فما الذى يجعله يختار بديلاً على بديل .

إنما يختار بديلاً على بديل وفق ما يرى من الخير فى البديل الذى يختاره .

وقد يختلف الناس فى تقدير ذلك الخير ، حسب أهوائهم ومشاعرهم ومواهبهم .

إذن . . فلابد أن توجد قوة عليا لتنظم سلطان الهوى ، حتى لا يفسد على الإنسان أمر اختياره ، فتتدخل هذه القوة لتفرض نظاما فى اختيار الشىء الذى إن لم تختره يحصل فيه الضرر .

وبعد ذلك تنتقل إلى الحيوان لتجد الحيوان متمتع بأنه يفوق جنسا آخر تحته ؛ هذا الجنس هو النبات الذى لا حس له ولا حركة .

والنبات يمتاز عن الجماد لأنه له نمو ، والجماد لا نمو له .

إذن . . فأجناس الوجود التى أمامنا مُتدرجة ، جنس يُسلم إلى جنس ، وتجد كل جنس فى خدمة الأجناس التى فوقه .

الجماد : ماء ، هواء ، عناصر أرض ، شمس ، قمر ، كل هذه جمادات ؛ هى فى خدمة من ؟ تخدم النبات ، تُغذيه بالضوء ، تغذيه بالعناصر ، الماء يُذيب له العناصر ليتغذى . ثم النبات يخدم ما فوقه ، وهو الحيوان ، والحيوان يخدم ما فوقه ، وهو الإنسان . ولكن الإنسان يخدم مَن ؟ لا شىء .

إنه السيد المخدوم من هذه الأجناس كلها ، ثم لا يجد له فى الوجود المرئى - أى عالم الملك - جنسا أرقى منه .

إذن . . فالإنسان تصب فيه كل هذه الأجناس لخدمته هو . هل صَبَّتْ فى خدمته بفكره هو وبقدرته عليها ؟ لا ، إنها تخدمه بدون قدرة له عليها ، تخدمه ولا قدرة له ، وهو صغير ، وهو طفل ، وهو جنين .

الشمس تمده بكذا ، والماء يمده بكذا ، والهواء يمده بكذا ، والنباتات والحيوانات تمده بكذا ، كل هذا قبل أن توجد له قوة .

أما كان من العقل أن نبحث عن القوة التى سخرت لي من لا يدخل تحت قدرتى ليكون فى خدمتى ؟ شىء لا يكون تحت قدرة الإنسان ، ما الذى جعله يدخل فى خدمتى ، وليست لي قوة تقهره على هذا ؟

أعندى قوة تأمر الشمس فتأتمر ؟ وتأمر القمر فيطيع . وتأمر الهواء فيستجيب ؟ وتأمر الماء فينصب ؟

أعندى قوة ترتب لي عناصر الأرض لتغذى النبات ؟ إنها أدت قبل أن توجد لك قوة ، وإن وجدت لك قوة فقوتك لا تتسامى إلى أن تقهرها .

إذن . . كان من الواجب عليك أيها العقل أن تقف وقفة لتبحث عن ذلك السُر الذى سخر لك ما هو أقوى منك ، إلى أن يكون لا مثلك ، ولكن فى خدمتك أنت . فإذا ما جاء إنسان وصاح : أيها الناس! إننى جئت لأخبركم بهذا اللغز ؛ لأنني عرفت من سخر لكم هذه الأشياء .

أظن أن أقل منطق يجعل الأذن تستجيب لذلك الداعى لتسمع منه حل اللغز الذى كان مشغولا به .

القوة هذه من الذى سخرها لى ، وأنا ليست لي قدرة ، فإذا ما جاء رسول من جنسى ليقول لي أنا جئت لأحل لك هذا اللغز ، وأن الذى سخر لك كل هذه الأشياء إنما هو « الله » .

إذن . . فقد حُلَّ اللغز الذى طلبت أنا حله ، وبعد ذلك يأتى الرسول بالآية والمعجزة الدالة على أنه صادق .

فإذا ما جاء بالمعجزة الدالة على أنه صادق ، أقال إننى الذى فعلت ؟ لا ، هو أيضا خرج من هذه المسألة ، وقال : لا . . أنا لم أفعل أيضًا ، وإلا لو أنه استغل المعجزة التى جاءت على يده ولم يستطع أحد أن يجئ بها وقال : أنا جئت بشىء لم يستطع أحد منكم أن يجئ به ، وتحداكم أن تجيئوا به ، فلو أنه قال : وأنا الذى فعلت ذلك ، ربما وجد مُصدِّق ، ومع ذلك لم يقُلها . لم يقلها أبدًا ، وقال : بل أنا مُتلقيها عن : « الله » .

ولذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُجَلِّى هذه الحقيقة تجلية علمية العقل يتطلبها والعقل يؤيدها قال على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ١٦] ، أنا جئت بهذا ؟! أنا أجيء بهذا ؟ أنا عمري الآن كم ؟ عمري أربعون . . هل جربتم على منطقا كهذا المنطق المُعجز قبل أن أقول به ؟! أبدًا ؛ وأنا معكم من أربعين سنة . . وهل تتفجر العبقرية بعد الأربعين ؟!

فأيضا من ضمن ما أثارته شُبه المستشرقين يقولون : إن محمدًا نشأ فى أمةٍ بليغة ، أمة لها فى البلاغة مجال ، ولها فى الفصاحة تميز ، ولها فى الأداء الجميل المستميل سوابق ، فلماذا لا تجعلون مسألة القرآن من محمد سابقة جميلة من هذه السوابق كما وجد منهم شعراء ، وكما وجد منهم

خطباء ، وكما وجد منهم حكماء ، وكما وجد منهم كذا ؟! مادامت هذه الظاهرة في البلاغة شائعة!!

لماذا لا تجعلون هذه الظاهرة شائعة وهو من ضمن هذه الظاهرة ، إلا أنها ظاهرة مثفوقة!!

نقول : إذا كان صاحب الظاهرة لم يقل بها ، صاحب الظاهرة يقول : ليست لى ، وإنما أنا ناقلها إليكم من إله بعثنى إليكم .

ويقول : بدليل أنكم لم تُجربوا على طيلة عمرى أنى بليغ أو أنى أديب أو أنى شاعر أو أنى خطيب : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ .

إذن . . فهو لابد أن يكون صادقًا . وإذا كان قد جاء بذلك وأنتم تنسبونه يا مستشرقين إلى أنه كذب ، وجازت كذبته على كل العرب .

نقول له : إذا كان قد كذب ، فما المراد من الكذب ؟ كل كذاب يكذب يحاول بكذبه أن يحقق له نفعًا لم يوجد قبل الكذب ، فما النفع الذى كان يريده محمد عليه الصلاة والسلام حتى يدعوه إلى الكذب .

إنه عاش كما تعلم ؛ عاش فقيرًا ، عاش كما قيل مسكينا متواضعًا ، عاش يلبس المرقع ، عاش لم يشبع من خبز شعير ، كل ذلك عيشه[1] .

---

(١) روى مسلم [٢٩٧٧/ ٣٤] واللفظ له ، والترمذى [٢٣٧٢] ، وابن ماجه [٤١٤٦] عن سماك قال : سمعت النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه يقول : ألستم فى طعام وشراب ما شئتم لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه .

وروى البخارى [٢٥٦٧] ، ومسلم [٢٩٧٢/ ٢٦] ، وابن ماجه [٤١٤٥] ، وأحمد فى المسند [٦/ ١٨٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقدت فى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار فقلت : يا خالة ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار كانت لهم منائح وكانوا يمنحون رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانهم فيسقينا .

وروى الترمذى [٢٣٧١] عن أبى طلحة رضي الله تعالى عنه قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر فرفع رسول الله صلى الله=

فإذا كان هذا الأمر كذلك فلماذا إذن كذب ؟!

= عليه وسلم عن حجرين . وقال الألباني : ضعيف .

وروى مسلم [٢٠٣٨/ ١٤٠] ، والترمذى [٢٣٦٩] عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم - أو ليلة - فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا : الجوع يا رسول الله .

قال : وأنا والذى نفسي بيده لأخرجني الذى أخرجكما قوموا ، فقاموا معه ، فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته فلما رأته المرأة قالت مرحبا وأهلا .

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين فلان ؟

قالت : ذهب يستعذب لنا من الماء ، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى .

قال : فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال : كلوا من هذه ، وأخذ المدية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياك والحلوب . فذبح لهم ، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : « والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم » .

وروى مسلم [٢٩٦٧/ ١٤] واللفظ له ، وابن ماجه [٤١٥٦] ، وأحمد فى المسند [٤/ ١٧٤] عن خالد بن عمير العدوي قال : خطبنا عتبة بن غزوان فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها فانتقلوا بخير ما بحضرتكم فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفة جهنم فيهوي فيها سبعين عاما لا يدرك لها قعرا ، ووالله لتملأن أفعجبتم ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فائتزرت بنصفها وائتزر سعد بنصفها فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرا على مصر من الأمصار ، وإني أعوذ بالله أن أكون فى نفسي عظيما وعند الله صغيرا وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت حتى يكون آخر عاقبتها ملكا فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا .

وروى أحمد فى المسند [٣/ ٢٧٠] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجتمع له غداء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضفف . قال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم . رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبان بن يزيد العطار ، فقد روى له البخارى تعليقا ، واحتج به مسلم

وروى البخارى [٥٤١٤] عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية فدعوه فأبى أن يأكل وقال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ولم=

- يشبع من خبز الشعير .

وروى الترمذى [٢٣٥٩] ، وأحمد فى المسند [٥/ ٢٥٣] عن سليم بن عامر قال سمعت أبا أمامة يقول : ما كان يفضل عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم خبز الشعير . وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح ، وهذا إسناد حسن فى المتابعات والشواهد . وقال الألبانى : صحيح .

وروى ابن ماجه [٣٣٤٦] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبز الشعير حتى قبض . وقال الألبانى : صحيح .

وروى الترمذى [٢٣٦٠] ، وابن ماجه [٣٣٤٧] ، وأحمد فى المسند [١/ ٢٥٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاويا ، وأهله لا يجدون العشاء وكان عامة خبزهم خبز الشعير . وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ووافقه الأرناؤوط والألبانى .

وروى الترمذى [٢٣٦٢] ، وابن حبان فى صحيحه [٦٣٥٦] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئا لغد . وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم . وقال الألبانى : صحيح .

وروى أحمد فى المسند [٦/ ٧٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه من الدنيا ثلاثة : الطعام ، والنساء ، والطيب فأصاب ثنتين ولم يصب واحدة ، أصاب النساء والطيب ، ولم يصب الطعام .

وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف لإبهام الراوي عن عائشة .

وروي الطبراني فى الأوسط [٧/ ٨٨/ ٦٩٣٧] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل عليه السلام على الصفا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا جبريل والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة من دقيق ولا كف من سويق فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله القيامة أن تقوم ؟

قال : لا ولكن أمر الله إسرافيل فنزل إليك حين سمع كلامك .

فأتاه إسرافيل فقال : إن الله سمع ما ذكرت فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض وأمرني أن يعرضن عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت فإن شئت نبيا ملكا وإن شئت نبيا عبدا .

فأومأ إليه جبريل أن تواضع ، فقال : بل نبيا عبدا ثلاثا .

وقال الهيثمي فى مجمع الزوائد [١٠/ ٣١٨] رواه الطبراني فى الأوسط وقال : فيه سعدان بن الوليد ، ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح ، ومجمع البحرين [٨/ ٢٩٦/ ٥١٣٨] لم يروه عن عطاء إلا سعداب . تفرد به الحسن وضعفه الألباني فى « ضعيف الترغيب » [١٩٠٨] ، وقال المنذري فى الترغيب والترهيب [٤/ ٥٥] : إسناده حسن .

إذن . . فليس للكذب مُبَرِّر لأن يكذب ، إلا أن يكون قد أراد من الكذب أن يضع لنفسه موضعًا أعلى مما هو فيه [١] .

وهو بالعكس لو أنه اقتصر على ما كان فيه من أمانة التَّجْر والتجارة لعاش فى يُسْر وعاش فى أمنٍ وعاش فى رخاء وعاش فى أسوة [٢] لكنه لم يكن كذلك لأنه لم يُرد الحياة لنفسه ، وإنما أرادها « لله » واهب الحياة .

(١) أحاديث تحذير الكذب . روى مسلم فى الصحيح [٢٦٠٧/ ١٠٤] عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الصدق بر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن العبد ليتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب فجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن العبد ليتحرى الكذب حتى يكتب كذابا .

(٢) ذكر ابن هشام فى السيرة [٢/ ٦٠٥] قال ابن إسحاق : وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم وكانت قريش قوما تجارا فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها : من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له : ميسرة فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وخرج فى مالها وخرج معه غلامها ميسرة .

إن هو إلا وحى يوحى

انتهينا فى الفصل السابق إلى الرد على افتراءات المستشرقين والمُبشرين بغير الإسلام فى **قولهم** إن محمدا قد كذب فى ادعائه أنه رسول مُبلغ عن الله ، وأن ظاهرة البلاغة الإعجازية فى القرآن الذى جاء به تتمشى مع طبيعة العصر الذى عاش فيه ؛ لأنكم أيها المسلمون بمنطقكم تقولون : إن محمدا صلى الله عليه وسلم نشأ فى جيلٍ بليغ ، فى جيل فصيح ، فى جيل يُحسن فن الأداء . فلماذا لا يكون هو ظاهرة من هذه الظواهر ؟!

ودفعنا ذلك بأنه لم يدعها ، وصاحب الكمال فى شىءٍ لابد أن ينسبه إلى نفسه ، وهو لم ينسبه إلى نفسه .

وأيضًا فإن وجوده فى سن الأربعين ومجيء البلاغة الإعجازية فى القرآن بعد سن الأربعين ولم يسبق له أن قال شيئًا من ذلك ، يدل على أن العبقرية الأدائية لم تنصب عليه فى سن الأربعين ؛ لأن ذلك مخالف لنظام العبقريات فى مقاييس الدنيا ، فما رأينا عبقرية تتأخر فى عبقري لسن الأربعين ، وإنما العبقريات تأتى عادة فى آخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث .

وهب أنه كانت عنده هذه العبقرية ثم آثر أن يُفجرها بعد سن الأربعين ، مَن الذى كان يضمن له أن يعيش ليُفجرها بعد سن الأربعين ؟! فربما فاجأته المنية فمات وماتت معه عبقريته وهو يعلم أن أباه مات هكذا وأمه ماتت والناس من حوله يتساقطون فى أى لحظة بدون توقيت أجلى فى أعمارهم .

إذن . . **فقولهم** إنه كذب ، **نقول لهم** : الكذاب يكذب لغاية ، فما الغاية التى من أجلها يكذب محمد ؟!

لقد كانت حياته حياة هادئة رتيبة ، فى مستوى يُحسد عليه ، وفى مركز

فى تجارة خديجة رضي الله تعالى عنها من الممكن أن يعيش به عزيز قوم ، فما الذى يدعوه إلى هذا الكذب ، يكذب ليصنع ماذا ؟ والمتاعب كلها انصبت عليه بعد قيامه بهذه الدعوى .

ثم بعد أن انتصر فى الفتح ، ودانت له الجزيرة ، وأصبح سيدها ،كيف عاش ؟ إنه دخل مكة فى منتهى التواضع ، وفى منتهى الانكسار لله ، وقالوا : وهو على دابته كانت رأسه كأنها من خشيته وخضوعه لله تعالى تمس قربوس سَرْجه[١] . إذن . . فذلك منتهى التواضع .

وإذا كانوا يحدثوننا أنه يمر الشهر ولا يُوقد فى بيت محمد نار[٢] - يعنى للطهى - ولم يشبع من خبز شعير ليلتين متتاليتين[٣] . كل هذا يدل على ماذا ؟

يدل على أن الكذب ليس له سبب أبدًا فى أن يدَّعى هذه المسألة .

وأيضا فإنه لم يجعل لأهله حظا فى دنيا هذا الإسلام . بل بالعكس ، منع أهله من أن يأخذوا حظهم من الزكاة وإن كانوا فقراء[٤] .

---

(١) راجع كتاب غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم غزوة الفتح [ص : ٣٠٤ - وما بعدها] وهو من مؤلفات : فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ومن منشورات مكتبة التراث الإسلامي .

(٢) روى البخارى [٦٤٥٨] ، وابن ماجه [٤١٤٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : « كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارا ، إنما هو التمر والماء إلا أن نؤتى باللحيم » .

(٣) روى الترمذى [٢٣٥٦] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : « والله ما شبع من خبز ولحم مرتين فى يوم » وضعفه الألبانى .

(٤) رواه البخارى [١٤٩١] ، ومسلم [١٠٦٩/١٦١] أن محمد بن زياد سمع أبا هريرة يقول : أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها فى فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كخ كخ ارم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة » .
قال النووى : قوله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ » هذه اللفظة تقال فى الشيء الواضح التحريم ونحوه وإن لم يكن المخاطب عالماً به ، وتقديره : عجب كيف خفي عليك هذا مع ظهور تحريم الزكاة على النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، هذا مذهب الشافعي وموافقيه أن آله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم بنو هاشم وبنو المطلب وبه قال بعض المالكية .

= وقال أبو حنيفة ومالك : هم بنو هاشم خاصة .
قال القاضي : وقال بعض العلماء : هم قريش كلها .
وقال أصبغ المالكي : هم بنو قصي .
دليل الشافعي أن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « إن بني هاشم وبني المطلب شيء واحد ، وقسم بينهم سهم ذوي القربى » ، وأما صدقة التطوع : فللشافعي فيها ثلاثة أقوال :
أصحها : أنها تحرم على رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحل لآله .
والثاني : تحرم عليه وعليهم .
والثالث : تحل له ولهم .
وأما موالي بني هاشم وبني المطلب فهل تحرم عليهم الزكاة ؟ فيه وجهان :
لأصحابنا أصحهما : تحرم للحديث الذي ذكره مسلم بعد هذا حديث أبي رافع .
والثاني : تحل .
وبالتحريم قال أبو حنيفة وسائر الكوفيين وبعض المالكية .
وبالإباحة قال مالك ، وادعى ابن بطال المالكي أن الخلاف إنما هو موالي بني هاشم .
وأما موالي غيرهم فتباح لهم بالإجماع وليس كما قال ، بل الأصح عند أصحابنا تحريمها على موالي بني هاشم وبني المطلب ولا فرق بينهما ، والله أعلم .
قوله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَنَّا لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ » ظاهره تحريم صدقة الفرض والنفل وفيهما الكلام السابق .
قوله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنِّي لَأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي ، أَوْ فِي بَيْتِي فَأَرْفَعُهَا لِآكُلَهَا ، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً أَوْ مِنَ الصَّدَقَةِ فَأُلْقِيهَا » فيه تحريم الصدقة عليه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه لا فرق بين صدقة الفرض والتطوع لقوله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الصدقة بالألف واللام ، وهي تعم النوعين ولم يقل : الزكاة . وفيه : استعمال الورع لأن هذه التمرة لا تحرم بمجرد الاحتمال لكن الورع تركها . قوله : « إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِتَمْرَةٍ بِالطَّرِيقِ ، فَقَالَ : لَوْلَا أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا » فيه : استعمال الورع كما سبق .
وفيه : أن التمرة ونحوها من محقرات الأموال ، لا يجب تعريفها بل يباح أكلها والتصرف فيها في الحال ، لأنه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما تركها خشية أن تكون من الصدقة لا لكونها لقطة ، وهذا الحكم متفق عليه ، وعلله أصحابنا وغيرهم بأن صاحبها في العادة لا يطلبها ولا يبقى له فيها مطمع ، والله أعلم .
قال الحافظ في الفتح ، قوله : « ليطرحها » زاد مسلم « ارم بها » وفي رواية حماد بن سلمة عن محمد بن زياد عند أحمد : « فنظر إليه فإذا هو يلوك تمرة فحرك خده وقال : =

وقد منع أهله أن يرثوه : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ؛ ما تركناه صدقة »[1] .

إذن . . فليس هناك سبب يدعوه إلى أن يكذب ليعيش هذه العيشة في هذه الدنيا التي كان يحاول الناس فيها أن يأخذوا حظهم منها .

وأيضا فإن الملابسات التي مرت به جعلت الناس أمامه قسمين :

قسم آمن به ، وقسم تصدى له .

المتصدى عادة لإبطال دعوى مقابلة ، يُجند لها كل مواهبه ، ويجند لها كل قواه ليحاول صدها . فكونهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وتصدوا له دليل على أنهم جندوا كل قواهم . وما داموا جندوا كل قواهم

= ألقها يا بني ألقها يا بني » ويجمع بين هذا وبين قوله : « كخ كخ » بأنه كلمه أولا بهذا فلما تمادى قال له : كخ كخ إشارة إلى استقذار ذلك له ، ويحتمل العكس بأن يكون كلمه أولا بذلك فلما تمادى نزعها من فيه .

قوله : « إنا لا نأكل الصدقة » في رواية مسلم « إنا لا تحل لنا الصدقة » وفي رواية معمر « إن الصدقة لا تحل لآل محمد » وكذا عند أحمد والطحاوي من حديث الحسن بن علي نفسه قال : « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فمر علي جرين من تمر الصدقة فأخذت منه تمرة فألقيتها في فمي فأخذها بلعابها فقال : إنا آل محمد لا نحل لنا الصدقة » وإسناده قوي .

وللطبراني والطحاوي من حديث أبي ليلى الأنصاري نحوه وفي الحديث دفع الصدقات إلى الإمام ، والانتفاع بالمسجد في الأمور العامة ، وجواز إدخال الأطفال المساجد وتأديبهم بما ينفعهم ومنعهم مما يضرهم ومن تناول المحرمات وإن كانوا غير مكلفين ليتدربوا بذلك .

واستنبط بعضهم منه منع ولي الصغيرة إذا اعتدت من الزينة ، وفيه الإعلام بسبب النهي ومخاطبة من لا يميز لقصد إسماع من يميز لأن الحسن إذ ذاك كان طفلا ، وأما قوله : « أما شعرت » وفي رواية البخاري في الجهاد « أما تعرف » ولمسلم « أما علمت » فهو شيء يقال عند الأمر الواضح وإن لم يكن المخاطب بذلك عالما أي كيف خفي عليك هذا مع ظهوره ، وهو أبلغ في الزجر من قوله لا تفعل .

(١) جزء من حديث رواه البخاري [٣٠٩٣] ، ومسلم [١٧٥٨/ ٥١] ، وأبو داود [٢٩٧٦] ، والنسائي في المجتبى [٧/ ١٣٢/ ٤١٤١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها .

ثم انتهى أمرهم إما إلى أن أئمة الكفر تُصْرع [١] ، والباقى يظل إلى أن يذهب إلى محمد صلى الله عليه وسلم مؤمنا به ، وبعد أن كان حَرْبًا عليه يكون سلاحًا فى يده [٢] .

كل هذا يدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يستلب هذه الزعامة الدينية ، إنما وهبت إليه من السماء .

وكانت لها تبعات لم يستفد منها هو ، ولم يستفد منها واحدٌ من بنيه ولا واحد من أهله رضي الله تعالى عنه .

أيضًا حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إننى أدلكم على الإله الذى خلق والذى رزق والذى سخر لكم كل ما فى الأرض مما لا يدخل تحت قدرتكم ، إنه الله ولا إله سواه .

بعد ذلك أعلنها فى : « لا إله إلا الله » ، وأعلنها مُدَوية وأعلنها فى أُذن سادة الجزيرة .

ومعنى سادة الجزيرة : أى الذين ما كان يستطيع أى عربى ولا أى قبيلة أن تقف فى وجههما . ومحمد بن عبد الله وهو لا يزال واحدًا . واستمر به الأمر وحوله بعض المستضعفين يقولها فى أُذن السادة لا فى مكة وحدها ولكن فى أذن سادة الجزيرة كلها .

سادة الجزيرة المسيطرون عليها ؛ يأخذون رحلة الشتاء ويأخذون رحلة الصيف ، ولا تستطيع قبيلة من القبائل أن تقف لهم .

هؤلاء يصدع محمد صلى الله عليه وسلم وحده فى آذانهم ليصد لهم ذلك الجبروت ، وليدُك لهم هذه السيادة ، وليقول لهم إن الأصنام التى

---

(١) كأمثال : أبى جهل ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وعمرو بن ود وغيرهم كثير .

(٢) مثل : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، وأبو سفيان بن حرب ، وهند زوجة أبى سفيان وغيرهم كثير .

تعبدونها من دون الله لا تضر ولا تنفع ، وإنكم يجب أن تلتفتوا إلى الله ؛ فتعبدوه وحده .

فهموا ما يريده الإسلام وما يريده محمد صلى الله عليه وسلم بدعوتهم إلى : « لا إله إلا الله » .

وبعد ذلك ظلت الكلمة مُنكرة ممن كفر بها ، ولم يدّع إله من الذين يدعونهم أن يقوم أمام هذا الإله ليقول لهم : لا ، أنا الإله ، وليس هذا هو الإله .

وظلّت كلمة : « لا إله إلا الله » بدون معارضة من إله آخر ، وهذا يثبت صحة دعوة : « لا إله إلا الله » .

إذن . . فقضية الإيمان انتهت بالصدق . . وقضية الإيمان انتهت بالواقع .

وإن كان هذا الكلام ليس صحيحا ، وليس حقيقيا ويوجد إله معارض!

نقول : ألم يسمع هذا الإله المعارض أن إلهًا قال : أنا الإله الواحد وأنه لا إله إلا أنا ؟! أسمع أم لم يسمع ؟! إن لم يكن قد سمع ، يكون إلهًا نائمًا على أذنه ، لا يدرى بما حوله . وإن كان قد سمع فلماذا لم يتحدَّ هو الآخر . ويقول : لا ؛ أنا الذى خلقت وأنا الذى رزقت وأنا الذى وأنا الذى ، وجاء هذا ليأخذه منى ، وبعد ذلك يكون لكل واحد منهما حجة ، وصاحب الحجة يكون هو الغالب .

لم ينشأ هذا ، وظلت كلمة : « لا إله إلا الله » ، وإن كفر بها قومٌ ليسوا هم الآلهة الذين كفروا ، إنما الذين يدعون أنه يوجد إله .

إذن . . الإله الذى تدعونه أين هو ؟! وقد قال الإله الحق : لا إله إلا أنا ، ويقول : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

إذن . . هذا الإله المزعوم إن لم يدافع عن ملكه ، فهو لا يصح أن يكون إلهًا لأن الكون أُخذ منه ، والألوهية أُخذت منه ، وهو إما أنه لم يدر ، وإما درى ولا يقدر أن يجابه!

إذن . . لا ينفع أن يكون إلهًا .

فقولنا : « لا إله إلا الله » بدون مُعارض ليس من أمثالنا ، لا بل بدون معارض من آلهة أخرى . فتظل الدعوى لصاحبها إلى أن يقوم معارض جديد لينفي هذه الدعوى .

إذا أردنا أن نكتفي بهذا القدر ، ونردهم من حقائق الوجود إلى واجب الوجود وهو « الله » ويكتفون بهذا ، فأهلاً وسهلاً .

وإن لم يكتفوا **نقول لهم** : الدين الذى جاء حَلَّ لكم كثيرًا من معضلات الحياة التى واجهتكم بمجهوداتكم أنتم .

علماء السُلالات - أو الأنسال - حينما صنعوا الإحصائيات للسلالات ، وجدوا أن السلالات تؤول فى المستقبل دائما إلى كثرة ، هم وقفوا عند الظاهرة ، ولكنهم ما استطاعوا أن يتمشوا مع الظاهرة تمشيا إيمانيا ليهديهم إلى أصل الدين .

لأنه ليس عندهم فكر فى أن يذهبوا إلى دين ، لو كان لهم فكر لأن يذهبوا إلى دين كان من الميسور على الباحثين والمفكرين والعقلاء الذين يستنبطون من مادة الأرض وبالتجارب والمعمل ، كان من الممكن أن يذهبوا إليه ، ولذلك الذى يضع الحقيقة الدينية نُصب عينه وهو يبحث ينتهى دائمًا إلى الإيمان ، ولكن الناس فى غفلة عن هذه المسألة .

نقول لهم : إن العالم سكانه الآن - كما نسمع - أربعة آلاف مليون .

فإذا قلنا : وقبل قرن من الزمن ؟ ماذا كان عدده ؟ قدِّر أى عدد ؟ نقول : ألف مليون مثلاً . وقبل قرنين ؟ خمسمائة مليون . وقبل ثلاثة ؟

سلسلها فى القدم ، فستنتهى إلى أنك كلما دخلت فى القدم وأوغلت فيه أنقصت فى العدد . إذن . . فالتكاثر ينشأ فى الاستقبال . وما دام التكاثر ينشأ فى الاستقبال فالتقال ينشأ فى الماضى فتتدرج معه هكذا .

ومن عشرة قرون كان كم ؟ خمسة ملايين . ومن عشرين قرن ؟

مليونان . ومن أربعين قرن ؟ مليون واحد . نظل هكذا حتى يأتى : مائة . وبعد المائة ؟ نقول له : خمسين ، وبعد الخمسين : يتدرج حتى عشرة ، وبعد العشرة ؟ ينتهى إلى عدد هو أقل عدد ممكن أن يأتى منه التكاثر وهو : اثنين . لا يصل إلى واحد ؛ لأن واحد لا يأتى منه تكاثر .

إذن . فمهما دخلنا فى الماضى فسيصل إلى « اثنين » . نقول له : إذن فقد حُلَّ لغز التكاثر والسلالات والأنسال .

ما الذى حله ؟ الذى حله الدين . كيف ؟

عندما يأتى دين يصادف الذى بحثناه فى القرن العشرين ، وعملنا له هذه السلسلة هكذا والتراجع كما عملنا هكذا ، وبعد ذلك ينتهى إلى العدد الذى ينشأ منه أولية التكاثر ، فنقول عندما يأتى إله يقول إنه : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء : ١] ثم يتابع : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء : ١] فيكون قد حلّ لي لغز السلالات ، ولُغز الأنسال ، ولغز التكاثر فى الوجود .

قضية لا يمكن أن يجادل فيها إنسان ، وإلا فكيف كنت ؟

ومن هذه نستطيع أن نرد أيضًا على الذين قالوا إننا كلنا من شىء واحد ، وأنا أصلى قرد ، وهذا أصله كذا . نقول له : لا ، بل كل جنس موجود باستقلاله .

إذن . قضية الدين ، الدين العالمى ، الدين الخالد الدين الذى تقوم عليه الساعة ، أتى بقضايا الوجود الأساسية التى سينتهى إليها الإنسان ببحثه المجرد عن التدين ليحل له هذه القضايا . ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

وأيضًا : كيف تكلّم الناس ؟ نحن نتمادى معهم حتى نأتى لهم بالشبه التى يقولون بها ، ومنها قولهم : أنتم تؤمنون بإله خرافي ليس موجودًا .

فنقول لهم : لا ، فالإله الذى تقولون عنه إنه خرافى ؟ هذا هو الذى فسر لنا الحقائق التى وصلتم أنتم إليها .

هذا الإله الذى أوصلنى إلى هذه المعلومات هو الذى أوصلنى لها ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بلّغها لي فقط . وإلا لو كنتم تريدون أن تقولوا إن محمدا هذا ليس رسولاً فتكونوا قد جعلتموه إلهًا . . وإلا فكيف جاء بهذه الأشياء التى لم ننتهى إليها إلى الآن فى القرن العشرين ؟

إذن . . فإن لم تكونوا راضين بمحمد كرسول ، فأنتم إذن تريدون أن تجعلوه فوق رسول . وهو قال : لا ، أنا رسول فقط ، أنا فقط علىّ البلاغ ، أنا جئتُ بهذا من عند الله ، ليس لي فيه شيء أبدًا [1] .

ونرتقى معهم أيضًا حتى نثبت لهم أن الكلام الذى يقولونه فرار من جدية البحث فى النظام ومقارنته بالنظام إلى أن ينقلونا إلى شيء لا دخل له فى المناظرة ولا دخل له فى الجدل ، ولكننا دخلنا فيه فقط لنُثبت لهم أنهم حَمْقى ، وأنهم لا يريدون أن يصلوا بالأمور إلى حقائقها ؛ لأن إيمانهم بإله يسيطر على الوجود كله وقانونه هو الذى يجب أن ينفُذ يمنعهم من أن يكونوا جبارين فى الأرض ، ويمنعهم من أن يكونوا متسلطين ويمنعهم من أن يكونوا حكاما بأمرهم .

إذن . . الإيمان بالله حل لنا كثيرا من قضايا الحياة التى انتهى إليها العقل فى عهدنا المعاصر ، ولولا وجود ذلك الدين وبخصوص دين الإسلام لوجدت فى الكون حقائق لا نستطيع تبريرها ولا نستطيع تعليلها .

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة : ٦٧] وقال الزهرى : من الله الرسالة ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاغ ، وعلينا التسليم .

كيفية التلقى عن الله

والفرق بين القرآن . . والحديث القدسي . . والحديث النبوي

هؤلاء الذين يُرجفون حول الإسلام ليُشككوا فى تعاليمه وفى مبادئه أشاعوا فيما وصلنى من الكتب أنهم يشيعون أن محمدا صلى الله عليه وسلم رجل كان يصيبه الصرع ، وكل ما حدث مما قال إنه قرآن ، أو قال إنه حديث قُدسى ، أو قال إنه حديث نبوى ، كل ذلك نتيجة الصرع .

وللرد على هؤلاء نقول باختصار : بالله قولوا لى : هل المصروع يُفيق إلى ما يكون منه أثناء صرعه ؟

إن المصروع يفعل ، وحين يفيق ينكر ما فعل ، ولا يذكره ، ولكن الذى حدث لمحمد صلى الله عليه وسلم أنه كان وقت يأتيه الوحى فى منتهى السكون وفى منتهى الهدوء ، ولا يحدث له إلا ما يحدث من اضطراب لا تُزوع له كلاميًا فلم يجربوا عليه أثناء الوحى كلمة خرجت منه ، ولا تصرفا فى جوارحه ، وإنما يلاحظون أشياء كانت تحدث فيه وهو فى منتهى الثبات ، وفى منتهى الاستقرار وفى منتهى الاتزان ، وإذا ما انفصلت عنه هذه الحالة ؛ حكى ما أوحى به الله له .

والذي يدل على بطلان ذلك أنه كان يوحى إليه النجم الطويل من القرآن . طولا يستغرق وقتا طويلاً ليحكيه ويقوله .

فإذا ما قاله وكتبه كُتاب الوحى عنه ، جاء هو صلى الله عليه وسلم فقرأه فى الصلاة ، وحين يقرأه فى الصلاة يقرأه كما كُتب عنه . فهل يوجد واحد يستطيع أن يأتى بكلام يستغرق الساعة فأكثر ثم يُقال له أعده كما قُلته ، فيعيده كما قاله ، لا شك أنه حين قال فكُتب عنه ، وحين قال ماكُتب فجاء

طبق ما قال ؛ دليل على أنه يصدر عن قضية قالها القرآن : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ لأن هذا أمر خارج عن نطاق البشر ، فهات أى إنسان ليتكلم ربع ساعة ثم سجل عليه ما تكلم به ، ثم قل له : أعد علىّ ما قلت ، إن لم يكن حافظا ، وربما إن كان حافظا أيضا أنه ينسى ولا يستطيع .

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم قل له : هات كلاما جديدا ، وقل لنا فيه ، وبعد ذلك سجل عليه ذلك ثم اطلب منه أن يعيد ، فلا تجد فارقًا بين ما قاله فكُتب عنه وبين ما يردده فى الصلاة بعد أن كُتب عنه .

أشاعوا وقالوا : إن كلاما جاءنا عن محمد يقول إنه قرآن ، ومرة يقول إنه حديث قدسى ، ومرة يقول إنه حديث نبوى . جعلوا من ذلك مصدر تشكيك!

قالوا : إنه كان حين يروق له أن يقول ذلك قرآن ، يقول : ذلك قرآن ، وحين يروق له أن يقول حديث قدسى ، يقول : حديث قدسى ، وحين يروق له أن يقول حديث نبوى ، يقول : حديث نبوى!

نقول لهم : إن الذى أخذتموه لتجعلوه ضد نبى الإسلام هو فى صالح نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ، ولكنكم قومٌ حمقى ، وعادة يترك الله بعض الحق عند الأحمق لينبه على حُمقه .

نقول لهم : هاتوا لي فى عالم الإنس إنسانا له موهبة أن يقول ، ومادام له موهبة أن يقول سجلوا له ظاهرة أسلوبه ، ثم سلوه أن يغير الأسلوب إلى أسلوب آخر ، وسجلوا الأسلوب الآخر ثم سهلوا له وقولوا له : نريد أسلوبا ثالثا . إنه لا يستطيع أبدا أن يتبرأ عن أسلوبه ؛ لأن الأسلوب هو الطريقة اللازمة للشخص فى أداء المعانى .

وما دامت له طريقة فى أداء المعانى ، فإن الأداء سيأخذ تشخيصا لا يمكن له أن يُبرئ نفسه منه . فإذا ما جئنا بأُسلوب قرآنى ، وأسلوب - كما نقول - حديث قدسى ، وأسلوب نبوى ، فسنجد أساليب ثلاثة ، لا

يمتزج فيه أسلوب بأسلوب ، ولا يشتبه فيها أسلوب بأسلوب .

بل أساليب ثلاثة ، لكل أُسلوب خواصه ومميزاته وطبائعه . . فهل يستطيع بشر أن يجعل لموهبته الأدائية ثلاثة أساليب ، بحيث يقول أنا سأتكلم الآن أسلوب قرآن ، وأتكلم الآن أسلوب حديث قدسي ، وأتكلم الآن أسلوب حديث نبوى ؟ هذا لا يوجد فى طاقة البشر .

إذن . . فهو كما هو ، القرآن يُوحيه الله له ، والحديث القدسى يُوحيه الله له ، ولكن الفارق أن القرآن يأتى وحيا معجزا متحدى به ، والحديث القُدسى يأتى أيضا من الله ولكنه ليس متحدى به ولا متعبدا بتلاوته ، وأيضا الحديث القدسي لا يمكن أن نصلى به ، ولا يمكن أن يكون إلا بطريق من الطرق التى لم يجئ بها القرآن .

فمثلاً القرآن إنما جاء بطريقة واحدة ، هذه الطريقة الواحدة هى الطريقة الثالثة فيما أخبر القرآن نفسه بها ، قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورى : ٥١] .

إذن . . كلام الله لخلقه لا يعدو هذه الثلاثة .

معنى وحى : الوحى هو إعلام بخفاء ، وهذا هو الإلهام كما يسميه العلماء ، وليس هو الوحى المراد به جبريل عليه السلام .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ أى : إن طبيعة البشر لا يمكن أن تتلقى عن الله ؛ لأن القدرة الممكنة مستحيل أن تتلقى عن القدرة الواجبة المطلقة ، وقلنا لنضرب المثل - ولله المثل الأعلى - ولنقرب ذلك : إن الطاقة حين تنقل من قوى إلى ضعيف لابد أن توجد بينها وسائط ، هذه الوسائط تأخذ من القوى لتعطى الضعيف . فالقوة الواجبة لا يمكن لبشر أن يتحملها ، بل لابد من إيجاد وسائط فالرسول صلى الله عليه وسلم يشترك مع إخوانه الرسل فى أنه كان يتلقى عن الله : إما إلهامًا ، وإما أن يتكلم الله من وراء حجاب ، وإما أن يُرسل رسولاً « هو جبريل » فيوحى بإذنه ما يشاء . . ثلاث طرق .

كل ما يمكن أن يكون من الاتصال بين الله وبين رسوله . . مرة يجيء بالإلهام الذى يسميه الله وحيا ، ومرة يجيء بكلام من وراء حجاب كما حدث فى ليلة الإسراء ، أو كما حدث لموسى عليه السلام حين كلمه ربه .

ولكن القرآن لم يجئ إلا بطريق واحد ، هذا الطريق الواحد هو : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورى : ٥١] ، إذن . . فالقرآن لا يثبت إلا بهذا الطريق .

ولكن الحديث النبوى والحديث القدسى يثبتان بالطرق الأخرى .

ولماذا خُصَّ القرآن بهذا ؟

لأن القرآن معجزة ، ومتحدى به ، فلابد أن يوجد وحى من الله إلى رسول الله ، ليكون ذلك إيذانًا بأنه إما أن تتغير طبيعته صلى الله عليه وسلم بعض الشيء ليمكن أن تتقبل عن الوحى ، وإما أن يتمثل له الوحى مرة كرجل[1] ، وحينئذ تكون المسألة خفيفة على رسول الله ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقى على بشريته وطبيعته ، والوحى هو الذى انتقل من طبيعته إلى رجل كما حدث وجاء ، وبعد ذلك سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الإيمان ؟ وسأل ما الإسلام ؟ ، وما

---

(١) روى البخارى [٢] ، ومسلم [٢٣٣٣/ ٨٧] ، والترمذى [٣٦٣٤] ، والنسائى فى المجتبى [٢/ ١٤٧/ ٩٣٤] عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أن الحارث بن هشام رضي الله تعالى عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده على ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول » .

وروى البخارى [٣٦٣٤، ٤٩٨٠] قال أبو عثمان : أنبئت أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة : من هذا ؟ أو كما قال . قال قالت : هذا دحية قالت أم سلمة : وايم الله ما حسبته إلا إياه حتى سمعت خطبة نبي الله صلى الله عليه وسلم يخبر عن جبريل أو كما قال : فقلت .

قال فقلت لأبى عثمان : ممن سمعت هذا ؟ قال : من أسامة بن زيد .

الإحسان ؟ ، فأجاب رسول الله بما أجاب به عن الإيمان وعن الإسلام وعن الإحسان ، وقال صحابة رسول الله : عجبنا كيف يسأله ثم يصدقه . . يقول له : صدقت .

ومعنى صدقت من السائل أنه كان يعلم الجواب مسبقا ؛ وإلا لما حكم على كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصدق ، عجبنا له كيف يسأله ويصدقه .

ولذلك زال العجب حينما قال : « هذا جبريل جاء ليعلمكم أمور دينكم »[1] .

إذن . . فالوحى قد يتشكل ، وقد يحدث للنبى صلى الله عليه وسلم فى ذاته ما يجعله أهلاً لتلقى الوحى .

ولذلك يقول الذين شهدوا هذه العملية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهم كانوا يسمعون حول رأسه كدوى النحل[2] .

---

(١) روى البخارى [٥٠] ، ومسلم [٩/ ٥] ، وابن ماجه [٦٤] ، والنسائى فى المجتبى [٨/ ١٠١/ ٤٩٩١] عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس ، فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث .
قال : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان .
قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان فى خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان : ٣٤] ثم أدبر ، فقال : ردوه فلم يروا شيئا . فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

(٢) روى الترمذى [٣١٧٣] ، وأحمد فى المسند [١/ ٣٤] عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول :
« كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه كدوي النحل »
وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح . وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف . وقال الألبانى : ضعيف .

أنه إذا أوحي إليه وهو على دابة تكاد تنخ[١] .

أنه إذا أوحى إليه ويده على رجل واحد من أصحابه تثقل عليه . إنه كان يصيبه كالرمضاء[٢] ، الذى هو العرق[٣] .

إذن كل ذلك دليل على أنه يوجد تفاعل حصل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا إيذانًا بأن جبريل جاء ليقول له شيئا ، ولكن الأشياء الأخرى كالأحاديث النبوية والقدسية ثبتت بالطريق الآخر ، الذى هو ﴿ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ .

ولذلك يجب أن نفهم أن اختلاف أسلوب القرآن عن الحديث القُدسى عن الحديث النبوى يجب أن لا يكون مسار تشكيك ، لكن يجب أن يكون دليل إيمان فى أن رسولاً يُعطينا ثلاثة أساليب للأداء لا يشترك أسلوب مع أسلوب ولا تشتبه طريقة أدائية بطريقة أدائية أخرى ، بل للقرآن المتحدى به خواصه ، وللحديث القدسى خواصه ولكن لا يتحدى به ، ولولا أن رسول

---

(١) روى الحاكم فى المستدرك [٢/ ٥٤٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها ، فلم تستطع أن تتحرك وثلث قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل : ٥] . وقال الذهبي فى التلخيص : صحيح .

(٢) روى البخارى [٢٨٣٢] ، والترمذى [٣٠٣٣] ، والنسائى فى المجتبى [٦/ ٩/ ٣١٠٠] عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال : رأيت مروان بن الحكم جالسا فى المسجد ، فأقبلت حتى جلست إلى جنبه فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ٩٥] ﴿ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قال : فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها علي فقال : يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان رجلا أعمى فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي ثم سرى عنه فأنزل الله عز وجل : ﴿ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾ [النساء : ٩٥] .

(٣) روى البخارى [٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : « لقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا » .
وروى مسلم [٨٦/ ٢٣٣٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : إن كان لينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغداة الباردة ثم تفيض جبهته عرقا .

الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فيما نقل له جبريل عن رب العزة أو يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يوحيه ربه إليه لما استطعنا أن نفرق بين حديث نبوى وحديث قدسى .

ولذلك رأى بعض العلماء أنه لا يكاد يوجد فارق بينهما ، إلا أن هذا الحديث القدسى توقيفى ، وأما الحديث النبوى فبعضه توقيفي وبعضه توفيقى ، يعنى : يقول فيوافق مراد الحق [1] .

---

(١) يقول الشيخ المدني في كتابه الإتحافات السنية شرح الأحاديث القدسية : القرآن هو : كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه . وقولهم المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للتمييز بينه وبين الكتب السماوية الأخرى كالتوراة والإنجيل والزبور وعن نحو الصحف المنزلة على إبراهيم عليه السلام ومعنى المتعبد بتلاوته : المأمور بقراءته في الصلاة أو غيرها فرضاً أو نفلاً بحسب الحال التي تكون فيها القراءة ، وقد تكون التلاوة محرمة كما في شأن الجنب والحائض ، وهذا القيد لتمييز القراءة المتواترة عن القراءة الشاذة ، فإنها غير متعبد بتلاوتها بل قال بعض الأئمة : لا تصح القراءة بها . وكذلك وصف التحدى .

وهذان القيدان : التعبد بالتلاوة والتحدي بالإتيان بسورة مثله يخرج الأحاديث القدسية إذا اعتبرنا أنها منزلة بلفظها على النبي صلى الله عليه وسلم ولكن التحقيق أنها من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فهي خارجة عن نطاق اللفظ المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهي غير متعبد بتلاوتها .

والقول بأن الحديث القدسي منزل بلفظه على النبي صلى الله عليه وسلم تعرض له فضيلة الأستاذ العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في مقدمة التفسير التي كتبها لطلبته في كلية أصول الدين ، وأبطله في أسلوب قوى ، قال فيه :

إن الحديث القدسي لو كان منزلاً على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظه لكان له حرمة المصحف من تعظيمه وحرمة مسه للجنب ، وحرمة قراءته كذلك ، إذ لا وجه للتفرقة بين لفظين منزلين من عند الله سبحانه ، وإن كان يمكن منع ذلك بأن القرآن غير المتواتر من وجهة نظر بعض النظار ، ليس له مزايا المتواتر مع أن كلاهما من عند الله سبحانه . على أنه قد يضاف إلى ذلك أن الحديث القدسي منه ما لا تصح نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فضلا من رفعه إلى الله سبحانه .

والتحقيق في نظرنا أن البرهان على كون الحديث القدسي موحى بمعناه بدون لفظه أن له صفة الحديث النبوي بدون فارق سوى النسبة إلى الله سبحانه للإيذان بأهمية الخبر وزيادة التوجيه إليه لأنه لا يضاف إلى الله سبحانه والكل منه ، إلا لاعتبار خطير يوقظ الوعي له ويوجه إلى العناية بأمره .

= يضاف إلى ذلك أن الكلام المنزل من عند الله لابد أن يختلف عن كلام البشر في أسلوبه وروعة منطقه ، وليس هناك فارق كبير في الأسلوب بين النوعين القدسي والنبوي يوجب الخروج عن طوق البشر ، ولهذا يروى الحديث القدسي بالمعنى وتختلف الروايات فيه بخلاف اللفظ الإلهي . كما أنه واضح أنه - القدسي - غير متعبد بتلاوته ولو كان كلام الله سبحانه لطلبت منا تلاوته من دون تغيير فيه ، محافظة على نصه أن يتسرب إليه دخل ، وإذا لكتب في صحائف خاصة به وليست هناك خصيصة من هذه الخصائص فلا يكون من لفظ الله سبحانه ، ولكنه من كلام نبيه صلى الله عليه وسلم . أما الفارق بين الحديثين القدسي وغيره ، فهو أن الحديث النبوي غير القدسي على ضربين بحسب ما يحتويه من المعاني :

الضرب الأول : غير التوقيفي : وهو الذي استنبطه النبي صلى الله عليه وسلم بفهمه في كتاب الله عز وجل أو أدركه بفهم في أمر يراه النبي صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه ، كما ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن زكاة الخيل ، فقال : لم ينزل علي في هذا غير هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝ ﴾ [الزلزلة] ، وهذا يبين أنه كان يتكلم بدون توقيف بالوحي ولكن بالاستنباط والفهم ، وأنعم به وأكرم .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يشير بالرأي فيقول له بعض الصحابة : أوحى أم رأي يا رسول الله ؟ فإذا علم أنه رأي أشار بخلافه ، فيعمل النبي صلى الله عليه وسلم بمشورته عملاً بقول الله سبحانه : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ وهذا القسم ليس من الوحي قطعاً فلا يشترك مع الحديث القدسي من هذه الناحية .

الضرب الثاني : التوقيفي : وهو ما تلقى النبي صلى الله عليه وسلم مضمونه من الوحي بمعنى يقذفه الله سبحانه في قلبه فيعبر عنه بكلام من منطقه صلى الله عليه وسلم

ومن هنا يعلم أن العلم منسوب إليه سبحانه ، والكلام منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ضرورة أن الكلام ينسب إلى قائله .

وليس مقتضى ذلك أن ينسب القدسي إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأن القدسي مقطوع بنسبة معناه إلى الله عز وجل ، وأما النبوي فإنه يحتمل أن يكون غير توقيفي فلذلك وجب الوقوف في النسبة إلى الله عز وجل بما يصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من نسبته إليه سبحانه .

على أنه ليست هناك نتيجة عملية في الاختلاف أكثر من بروز القدسي في إخراج يقتضي مزيد العناية بأمره والاهتمام به .

على أن مايصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم بطريق النظر والاجتهاد فيه فإنه يجب الأخذ والعمل بمقتضاه ما لم يعلم أن الله سبحانه لم يقره على اجتهاده كما فسر موضوع أسارى بدر ، على أن العمل بالاجتهاد فيه قد سبق الوحي وعفا الله عما سلف تكريماً لحبيبه من التعليم في شأن غيره وبناء على ذلك ، فإن القدسي من الحديث هو الذي جزم=

= فيه بأنه وحي وأما غيره فلا يخلو من احتمال الاجتهاد في الجملة .

طريقة الشيخ المدني في التفرقة :

لابد لنا من الإشارة إلى أن مسلك الشيخ المدني في التفرقة ، فإنه جعلها ذيلا للكتاب وموضوعها هنا ولا تخلو من فائدة .

ويقول الشيخ في نهاية كتابه :

إن قدسي بضمتين أو بضم فسكون بمعنى الطهر ، وإن قدسيًا منسوب إلى القدس ويقول إن السبب في نسبتها إلى القدس ، وأن معناها مضاف إلى الله تعالى وحده كما تقتضيه التفريقات للحديث القدسي من أنه ما أخبر الله سبحانه به نبيه بإلهام أو منام فأخبر به صلى الله عليه وسلم بعبارة نفسه والقرآن مفضل عليه لأن لفظه منزل أيضاً . ثم نقل عن القاري عليه الرحمة : أن القدسي ما يرويه صدر الرواة وبدر الثقات عليه أفضل الصلاة وأكمل التحيات عن الله تعالى تارة بواسطة جبريل عليه السلام ، وتارة بالوحي والإلهام والمنام مفوضا إليه التعبير بأي عبارة شاء .

وهي تغاير القرآن بأن نزوله لا يكون إلا بوساطة روح الله الأمين ويكون مقيدا باللفظ المنزل من اللوح المحفوظ ، ثم يكون نقله متواترا قطعيا في كل طبقة ويتفرع على ذلك فروع كثيرة :

منها : عدم صحة الصلاة بقراءة الأحاديث القدسية .

ومنها : عدم حرمة لمسها وقراءتها للجنب والحائض والنفساء .

ومنها : عدم تعلق الإعجاز بها . ومنها عدم كفر جاحدها .

ثم نقل عن الكرماني شارح البخاري في أول كتاب الصوم في الفرق أن لفظ القرآن معجز ومنزل بواسطة جبريل بخلاف القدسي .

ونقل عن الطيبي ما لا يختلف عن ذلك ، ونقل عن ابن حجر ما يؤيد ذلك .

مشقة التلقى عن الله

الحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يُرسل رسولاً إلى خلقه إنما يرحمهم جميعا به ، هذه الرحمة تتمثل فى أن جعل مشقة النقل عن الأعلى قاصرة على واحد ، وإلا فلو أن هذه الحالة جاءت لكل واحد وخاطب الله كل إنسان لكان كل إنسان تعرض لهذه المسألة .

ولكنه اختار بعض خلقه[١] وأعدهم على عينه[٢] حتى يكونوا أهلاً لهذا التلقى ، ومع ذلك أصابهم شيء من التعب ، نُدرك ذلك فى قول الحق : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ ﴾ .

وإذا ما قرأنا هذه السورة وجدناها جاءت بعد قوله سبحانه : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾ [الضحى] . حينما فتر الوحى[٣] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الوحى كان يجيء بتبعاته وكان يجيء بمشقاته ، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سُرّى عنه قال زملونى ودثرونى ، أى أن تُرجف بوادره كأنما يصيبه شيء من الحمى[٤] .

---

(١) إشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥] .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى ﴾ [طه : ٣٩] وقوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] أى : بمرأى ومنظر منا نرى ونسمع ما تقول وتفعل . وقيل : بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك والمعنى واحد . قاله القرطبي فى التفسير .

(٣) روى البخارى [١١٢٥] ، ومسلم [١٧٩٧/ ١١٤] عن جندب بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : احتبس جبريل صلى الله عليه وسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فقالت امرأة من قريش : أبطأ عليه شيطانه فنزلت : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾ [الضحى] .

(٤) روى مسلم [١٦١/ ٢٥٥] عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال : قال =

إذن . . فهذه المتاعب تحملها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمته ليأخذ عن الله . ولو أن الله أراد أن يخاطب كل الناس كما خاطب رسول الله لكان ذلك العنت على الجميع ، ولكن الله اصطفى واحدًا ليُحمّله هذه المسألة ، ومع ذلك أعده الإعداد الذى يُناسب هذا التحمل ، ومع ذلك حدث له من المتاعب ما يقول الله فيه : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ ﴾ .

إذن . . فالشىء الذى كان يأتي أولاً بالمشقة صحيح ، وواقع الوحى مع رسول الله أن رسول الله فى الفترة التالية لم تكن المتاعب التى حدثت له فى الفترة الأولى هى المتاعب التى تحدث له فى الفترة الثانية . ولذلك قال الله تعالى له فى السورة : ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى : ٤] ، لأن أول علاقة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوحى كانت الدُّرْبة صعبة ، الرياضة صعبة ، ولكن حين كان يفصم الوحى عن رسول الله وبعد ذلك يَجْتَرُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حلاوة ما ألقاه الله عليه من أمر الوحى ، بعد أن يهدأ تعبه يُعجبه ما أخذه ، فلما أعجبه ما أخذه فتر عنه الوحى لتوجد فى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاقة اشتياقية ، الطاقات الاشتياقية فى النفس البشرية تحمل كثيرًا من المتاعب وتغسل كثيرًا من الكدر ، فإذا ما كان الإنسان يتحمل شيئًا من المشقة فى سبيل أن ينال شيئًا من الخير ، يتعب ساعة زوال المشقة ولكنه حين ينعم بذلك الخير يتمنى أن يحدث ذلك له مرة أخرى . هذا التمنى يصوره لنا بعض الفلاسفة تصويرا فيقول : هب أنك رأيت شجرة من التفاح على جبل ، وهذا الجبل الصعود إليه شاق وطريقه

= رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي قال في حديثه : « فبينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجئثت منه فرقا فرجعت فقلت : زملوني زملوني فدثروني فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝ ﴾ [المدثر] وهي الأوثان قال : ثم تتابع الوحي .

وعر ، لكنك تحملت المشقة والتعب فوقعت مرة ، وتشبثت بالصخر مرة ، وانزلقت مرة ، وتشبثت بالصخر مرة ، ونالك ما نالك من رضوض ومن جروح ولكنك وصلت إلى الشجرة ، فأخذت منها ثمرة ، ونزلت بهذه الثمرة حين تهدأ ويهدأ ما نالك من التعب ثم تأكل الثمرة ، يحدث لك شوق أن تصنع مثل ذلك ، هذا الشوق يُوجد لك طاقة ثانية فوق طاقتك الأصيلة ، أى يُلهيك عن المتاعب ، أى يغريك بالمتاعب ، فإذا ما ألهاك عن المتاعب ، أو أغراك ، لأنك كنت فى أول الأمر تعبا قبل أن تُدرك لذة ، ولكنك الآن تعب بعد أن أدركت لذة ، فاللذة التى أدركتها نتيجة التعب الأول هى التى سهلت لك التعب الثانى .

لذلك كان رسول الله حينما جاء له الوحى أولاً والثمرة متأخرة لم تأت بعد ، فلما جاءته جعل الله له فترة وحى ليوجد طاقة من الشوق وطاقة من الحنين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حلاوة ما يصله من الله ، هذه الحلاوة والطاقة يسرت له كثيرا من المتاعب ، ولذلك لم يعد يقول بعد ما حدث بعد الفترة لا يقول زملونى ، ولا يقول دثرونى ، ولا ترجف بوادره ، ولا يقول فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، كل هذا لم يحدث[1] .

---

(١) رواه البخارى [٤] ، ومسلم [١٦٠/ ٢٥٢] عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : « ما أنا بقارئ » . قال : « فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ ﴾ [العلق] . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : « زملوني زملوني » . فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، =

إذن . . قول الله تعالى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ لماذا ؟ لأنك قد أخذت لذة من المتاعب الأولى ، هذه اللذة يسرت عليك فيما بعد سبيل أن تأتى وتشتاق إلى الوحى ليأتى لك من جديد .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾ إنما صنع ذلك لحكمة ، لا لتوديع ، ولا لقيل ولا لهجر وإنما هى لتربية الاشتياق فى نفسك حتى يسهل عليك أمر استقبال متاعب الوحى ، فلا توجد بعد ذلك هذه المتاعب .

إذن . . فالحق سبحانه وتعالى حينما يُعطى لرسوله صلى الله عليه وسلم من فيضه ، يعطيه عطاءات متعددة ، عطاء هو قرآن ويقول له : تحدى به ، وعطاء آخر أحاديث قدسية ليست للتحدى ، ويعطيه عطاء يفوضه فيه وهو الحديث النبوى ، ولذلك : الحديث ليس كله فقط كلام ، لا ، إن رأى صلوات الله وسلامه عليه غيره تكلم فسكت ، يكون حديثًا عن رسول الله . يعنى إقراره لما يسمع حديث . فعل واحد فعلاً ووافقه رسول الله ؛ يكون حديثا . لكن الأحاديث مرة تكون توفيقية ، وتكون توقيفية ، فالحديث القدسى توقيفى من الله . بدليل

= فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسى » . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، فقاله له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله به على موسى ، يا ليتني فيها جذع ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أومخرجي هم ؟ » . قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى .

أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين يعرضه يعرضه مسندًا إلى رب العزة : فيما يرويه عن رب العزة ، وما دام فيما يرويه عن رب العزة ، ذلك فى السند ، ولكنه فى المتن أيضا تجد فيه دليلاً على ذلك ؛ لأنه عندما يقول : « يا عبادى » فمن الذي ينادى ؟ إنما هو الله . « إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما » ، « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم » كل هذا ما دام يقول « يا عبادى » [١] .

وعندما يقول مثلاً فى حديث : « أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيها بيدى » [٢] متن الحديث نفسه يوحى بأن الله هو الذى يتكلم .

ولكن أحاديثه صلى الله عليه وسلم منها ما هو توقيفى - يعنى أوحى الله له أن يقوله بمعانيه ، أو يقوله النبى صلى الله عليه وسلم فيوافق ، أو يُعدَّل .

ولذلك أيضا من ضمن الأشياء التى كتب إلىَّ فيها : أنكم تقولون : إن نبى الإسلام لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى [٣] ، فكيف تقولون ذلك مع أنه ثبت عندكم أن الله غيَّر له كثيرًا من الأحكام التى قالها ؟

نعم سؤال فى ذاته يمكن فى سطحيته هكذا وجاهة ، أنتم تقولون : إن رسولكم لاينطق عن الهوى ، والقرآن يقول : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٤] ، ولكنه بعد ذلك يعدل له ، فقبل أن يعدَّل له ماذا كان ؟ لو أنه كان بالوحى لما عُدِّل ، وما دام قد عُدِّل فمعناه أنه من بشرية محمد صلى

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٢٥٧٧/ ٥٥] ، وأحمد فى المسند [٥/ ١٦٠] عن أبى ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) روى ابن أبى شيبة فى المصنف [٧/ ٦٣، ٣٤٢١٨، ٧/ ٦٩/ ٣٤٢٦٠] عن عبد الله بن نمير عن مالك بن مغول قال : كان فى زبور داود : أنى أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك ، قلوب الملوك بيدى ، فأيما قوم كانوا على طاعة جعلت الملوك عليهم رحمة ، وأيما قوم كانوا على معصية جعلت الملوك عليهم نقمة لا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولا تتوبوا إليهم ، توبوا إلى من أعطف قلوب الملوك عليكم .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم] .

الله عليه وسلم . فكيف يقول : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم : ٣] ؟

نقول لهم : مادام عندهم غباء ، أو ليس عندهم غباء ولكن عندهم سوء قصد وسوء ظنونية ، أولي للحقائق والألفاظ ، فنفهمهم نحن فنقول : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ يعنى ماذا ؟ الله فوضه أن يقول ، أمِنَه أن يقول ، بدليل أنه قال سبحانه فى القرآن : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ .

إذن . . فجعله من الرسول إتيانًا يؤتى أمته بأي شىء ؟ مفوض من الله .

ولذلك كان بعض العلماء إذا ما سُئل عن حكم لا يوجد فى القرآن نص عليه وإنما هو من فعله صلى الله عليه وسلم يقول : هاتوا لي دليلاً من القرآن على أن الفجر ركعتان ، وعلى أن الظهر أربع ، وعلى أن العصر أربع وعلى أن المغرب ثلاث ، وعلى أن العشاء أربع ، هاتوا دليلاً من القرآن على هذا ؟ أو هاتوا دليلاً من القرآن على أن الأوقات التى فرضها ربنا خمس ؟!

نقول له : كان يقول : الدليل على كل ذلك : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ فالرسول مُفوَّض فى الأمر أن يُبينه ، الله شرع الصلاة إجمالاً ، وترك للرسول أن يبينها تفصيلاً ، عدد أوقات ، وعدد ركعات ، وهيئة وحركة ، كل هذا فوض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمبدأ ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾[1] .

ولذلك من زمان قديم كنت أُمثل بهذه المسألة وأقول : وأنتم هاتوا لي نصا من دستور بلادكم أن الموظف الذى يتغيب خمسة عشر يوما يُفصل ؟ لا يوجد نص فى الدستور بهذا أبدًا .

إذن . . عندما يفصلوا واحدًا بعد خمسة عشر يوما يقولون له أنت

---

(١) ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه البخارى [٦٣١] عن مالك بن الحويرث رضي الله تعالى عنه : « . . وصلوا كما رأيتموني أصلي » .

مخالف للدستور ، فيقول : لا ، لأن الدستور نص على أن موظفي الدولة لهم مثلاً قانون ، وهذا القانون مثلاً كذا يعمله .

إذن . . فوض فى الجزئيات . فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء له الأمر الكلى من الله ، أو الأمر الإجمالى من الله ، وبعد ذلك قال : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ .

وهذا كما نحن نسميه « اللائحة التنفيذية » أو القوانين المكملة لمطلوبات الدساتير ، فعندما نقول له على أى حاجة ، أسأله من القرآن ، الآن ظهرت موضة جديدة ، كل الذين يريدون أن يجترئوا ، اجترأوا أولاً على أئمة الإسلام وقالوا : الشافعى وأبو حنيفة ومالك وابن حنبل ، كل هؤلاء لا نعترف بهم ، وبعد ذلك تطاول اجتراؤهم فاجترأوا على أحاديث رسول الله ، وقالوا : لا نحن عندنا القرآن .

نقول لهم : يامن تقول هذا إنى رأيتك تصلى الفجر كذا ، والظهر كذا ، والعصر كذا ، ولم تناقش فيها فهاتنى أنت دليل ما فعلت من القرآن ؟ فلن يستطع أن يجيء بالدليل[1] .

---

(١) وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الفئة فقال فى الحديث الذى رواه أحمد فى المسند [٤/ ١٣٠] عن المقدام بن معد يكرب الكندي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل يتثني شبعانا على أريكته يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ألا ولا لقطة من مال معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروهم فإن لم يقروهم فلهم أن يعقبوهم بمثل قراهم . وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن أبى عروف الجرشى ، فمن رجال أبى داود والنسائى ، وهو ثقة . ولهذا وغيره قال الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني فى مقدمة الفتح : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الذى أنزل على عبده الكتاب ليكون للعالمين نذيرا . والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله ، الذى أرسله الله تعالى رحمة للناس ، وآتاه الحكمة وجوامع الكلم ، وعلمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد فإن السنة هى المصدر التشريعي الثانى - من المصادر المتفق عليها لدى=

أقول له إذن . . نهديك نحن إلى الدليل ونقول لك : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ . فهذا هو الدليل على كل أمر جاء به القرآن إجمالاً وجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم تفصيلاً .

ولذلك جاء في القرآن عن الأمور التي طلب الله من عباده فيها

= المسلمين - بعد كتاب الله عز وجل ، فهي أصل من أصول الدين ، ومنهاج خصب للتشريع ، ودليل أساسي من أدلة الأحكام ، تعرفنا حكم الله سبحانه وتعالى في كل كبير وصغير ، فهي جامعة مانعة ، عامة شاملة ، لا تفوتها شاردة ولا واردة إلا وقد أعطتها حكما شرعيا ، فيها بيان لما كان وما سيكون ، وفيها تنظيم عملي رائع لشؤون الحياة ، مستوحى عن الله تعالى خالق الحياة ومن يحيا ، ومرتبط بمالك الملك والملكوت ، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . فقلما تحدث حادثة أو تنزل نازلة إلا ونجد في السنة المطهرة الحكم الشافي والبيان الوافي لها . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن ربه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة : ٦٧] . وهو المبين مراد الله عز وجل فيما أنزل : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] . فالسنة المطهرة تأكيد لما بين كتاب الله من أحكام ، وتفصيل لما أجمل ، وتقييد لما أطلق ، وتخصيص لما هو عام ، أو تشريع لما سكت عنه القرآن ، ولكنه تطبيق لقواعده العامة وأصوله المقررة ، ومستمد منه . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو المظهر العملي لشريعة الله تعالى ، فهو المكلف الأول : ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٣] . ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] . وهو القدوة الصالحة : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] . وهو الذي يتلقى الوحي من السماء : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم] . وهو الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وهو الذي قذف الله النور في قلبه ، وأجرى الحق على لسانه ، وجعل طاعته من طاعته ، ومعصيته معصية له سبحانه : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء : ٨٠] .

لهذا كله كانت السنة المطهرة ، في مجمل أحكامها وتشريعاتها - من حيث وجوب العمل بها - بمنزلة كتاب الله تعالى ، فما ثبت فيها فهو ثابت بوحي من الله سبحانه ، وأمر منه وتكليف : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] . وعليه فالسنة حجة على المسلمين بلا خلاف ، وقد أجمع علماء الأمة على أن من أنكر حجيتها عموما فهو كافر مرتد عن الإسلام .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد للمسلمين من الرجوع إلى ما نقل عنه صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، والأخذ بما ثبت منه ، ليعمل به . ولقد بذل السلف الصالح من العلماء جهودا مشكورة في خدمة دين الله عز وجل ، فدونوا لنا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصنفات ، تنوعت أساليبها واختلفت شروطها .

الطاعة ؛ قال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [محمد : ٣٣] فكرر أمر الطاعة ، عند الله طاعة وعند الرسول طاعة ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ .

ومرة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢] ولم يقل : « وأطيعوا الرسول » ومرة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النور : ٥٦] فقط لم يأت بـ ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ . مما يدل على أن تشريعات الله التى أمرنا الحق بأن نطيعه فيها : تشريع : اشتركا فيه ، الحق شرّع ، والرسول شرع أيضا ، فنطيع الله ونطيع الرسول . وحكم شرعه الله وبينه الرسول صلى الله عليه وسلم وحكم آخر لم يشرعه الله أبدًا ؛ لا جملة ولا تفصيلاً وذلك هو ما انفرد به رسول الله صلى الله عليه وسلم . لأن القرآن إنما جاء لا كتاب تشريع فقط ، ولكنه جاء كتاب معجزة أيضا ، وجاء فى التشريع بالأمور والقواعد الكلية ، وترك اللائحة التفسيرية وترك التفويض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قضية التبني
وشبهة تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم

انتهينا فى الفصل السابق عند الرد على المرجفين حول قضية الإسلام فى جزئية من الجزئيات التى أذاعوها وروجوا لها وهي قولهم إن القرآن يقول : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ ويقول : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ ومع ذلك يُعدِّل الله له .

فحين يُعدِّل الله له ، أيهما كان من الوحى ؟ فإن كان الوحى بالأول وبالثاني فقد تعارضا ، وإن كان الوحى بالثاني دون الأول فقد نطق الرسول عن غير الوحى .

نقول لهم : أنتم لم تفهموا معنى كلمة : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ ، فالوحى إما أن يجيء بالأمر تفصيلاً ، وبذلك لا يوجد للرسول فيه عمل ، وإما أن يوحى الله الأمر إجمالاً ، ويُبقى قضية تفويضية من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن يشرع كما قال : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ .

فإن حكم حكما ، وجاء الحق سبحانه وتعالى فعدله له وصوبه له ، دليلٌ على أن ذلك فيما فوض فيه ، فحكم فيه رسول الله بما تقتضيه الفطرة الطبيعية الإنسانية ، ولكنه لم يكن هناك حكم من الله ، فعدل عنه رسول الله ليخدم هوى فى نفسه .

لم يكن هناك حكم من الله ، فعدل عنه رسول الله إلى هوى يحققه ، ولكنه بمقتضى التفويض من الله قال بالفطرة الإيمانية البشرية ، وبعد ذلك يدلنا الله على أن رسول الله صادق فى البلاغ عنه فيترك رسول الله صلى الله

عليه وسلم ليقول بالفطرة البشرية بالمقاييس التى ترتضيها الفطرة الإيمانية فى الرسول ، ولكن الله أعلى حكمة من الرسول فيُعدِّل له حتى نفهم أن الله لم يُفوضه ويتركه لبشريته ليقول ما يشاء ، فإذا ما جاء بشىء البشرية تحكم به على مقتضى حكمتها يُعدِّله الله له .

فإذا ما قال الرسول إن ربى عدل لي الحكم ، فيكون قد دل ذلك على أنه صادق فى البلاغ عن الله ، وأنه لا عزة له مع ربه ، ولأنه لا كبرياء عليه أن يصوب له ربه ؛ لأنه مَن الذى صوب ؟ إنما يصوب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

إذن . . فكل ذلك ليثبت أنه مأمور حتى فى حالة اجتهاده ، لكنه فى حالة أنه لا يوافق الحق لا نقول إنه أخطأ ؛ لماذا ؟ لأن الخطأ : أن توجد عندك قاعدة صوابية ، ثم تخالفها . فيحاول المصحح لك أن يقول لك : ذلك خطأ ، أى : لا ينسجم مع القاعدة الصوابية التى أعطيتها لك .

فإذا قلنا للتلميذ : الفاعل مرفوع ، ثم بعد ذلك صوبنا له حين نصبه ، يقال إننا عدلنا له الخطأ . خطأ بمعنى لأن عنده قاعدة صوابية وهي أن الفاعل مرفوع ، ولكن رسول الله فى الأحكام التى عدلت له لم يكن فيها حكم من الله ، بل هو يقول بمقتضى التفويض ، وبمقتضى الفطنة البشرية ، ولكن الله يعدل له ، وربه حين يعدل له يدلنا على أنه لم يفوض رسوله ثم يتركه ، ولكنه إن وافق الحق أقره ، وإن لم يجرِ بما يوافق الحكمة العليا عدل الله الحكمة البشرية بالحكمة الربانية .

فإذا ما قال الرسول بعد ذلك علمنا أنه مأمون لم يستح أن يقول إن الله صوب لى . فذلك دليل على أنه مأمون على كل ما يقول .

إذن . . فقول الله : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ ليس معناه أنه لا يقول شيئا إلا الحق ، نقول له : لا ، لم تكن عنده قضية فخالفها ليخدم هواه ، فإن وافقت الحق أقرها الله سبحانه وتعالى ، وإن لم توافق فالحق سبحانه وتعالى يعدل للرسول صلى الله عليه وسلم استنباطاته .

ولذلك مثلاً نجد قضية قرآنية ، هذه القضية القرآنية أن زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه كان قد وهبته السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وهبته له وصار مولى لرسول الله جاء أبوه وقد عرف أنه بمكة لأنه كان مسروقا ، وأراد أن يأخذه من رسول الله ، فخيره رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أن يذهب إلى أبيه وبين أن يظل معه ، فانظروا إلى حُبِّ زيد إلى رسول الله ، قال : « ما كنت لأختار على رسول الله أحدًا » ولم يرض أن يذهب مع أبيه وظل مع رسول الله .

فأراد النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالحنان البشرى أن يكافئ زيدا على ذلك فدعاه زيد ابن محمد ، وبعدما كان اسمه زيد بن حارثة أصبح زيد ابن محمد .

الله لم يرض على مسألة التبنى فى الإسلام ، وأراد أن يُبطلها عند محمد وعند غيره ، ولكنه جعل رسوله الأسوة فى إلغاء هذه القضية فـ : « منع التبنى » وقال سبحانه : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ .

أكان هناك حكم أول فى أننا ندعوهم إلى الآباء ثم عدل محمد بحنانه ليقول زيد بن حارثة ؟!

لا . لم يكن هناك حكم فى هذا ، وإنما صنع محمد صلى الله عليه وسلم ذلك ليرد به جميل زيد فى أنه آثر وجوده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجوده مع أبيه ، فأراد أن يكافئه[1] .

ولذلك الحق سبحانه وهو الحكيم فى الأسلوب أنصف رسول الله

---

(١) قال ابن هشام : زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى بن امرئ القيس ابن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ود بن عوف بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة ابن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة .

وكان حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق ، فيهم زيد بن حارثة وصيف ، فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد ، وهي يومئذ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك ؛ فاختارت زيدا

صلى الله عليه وسلم وقال تعالى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٥]

أقسط يعنى ماذا ؟ أقسط : أفعل تفضيل ، يعنى : أكثر قسطا ، أكثر عدلاً .

إذن . . الذى فعله محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن جَوْرًا ، لو أنه قال : « ادعوهم لآبائهم ذلك هو القسط عند الله » لكان فعل محمد صلى الله عليه وسلم جورا .

فالقسط يقابله : الجَوْر .

ولكن قال : ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ كأنه سبحانه يقول : يا محمد إنك فعلت ما يوجبه القسط لأنك أردت أن ترد جميل زيد إليه وذلك عدل ، ولكن أنا عندى قضية أعدل : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ ، ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ .

= فأخذته ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها ، فاستوهبه منها ، فوهبته له ، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبناه ، وذلك قبل أن يوحى إليه .

وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعا شديدا ، وبكى عليه حين فقده ، فقال :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحيّ فيُرجى أم أتى دونه الأجلُ

فوالله ما أدري وإني لسائل ... أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل

وياليت شعري هل لك الدهر أوبة ... فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل

تذكّرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفل

وإن هبت الأرواح هيجن ذكره ... فيا طول ما حزني عليه وما وجل

سأعمل نص العيس في الأرض جاهدا ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل

حياتي أو تأتي علي منيتي ... فكل امرئ فان وإن غره الأمل

ثم قدم عليه وهو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شئت فأقم عندى ، وإن شئت فانطلق مع أبيك ، فقال : بل أقيم عندك . فلم يزل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله فصدقه وأسلم ، وصلى معه ؛ فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ . قال : أنا زيد بن حارثة .

إذن . . أنصفه الله تعالى فى الحكم أم لا ؟

الذي ينظر نظرة سطحية للأسلوب يقول لك : عدل الله له ، هو قال : زيد ابن محمد ، قال له : لا ، اجعله زيد بن حارثة !

نقول له : لا ، انظر إلى العبارة : ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ لم يقل : « ذلكم هو القسط عند الله » .

لو قال : « ذلكم هو القسط عند الله » لنسب محمدا صلى الله عليه وسلم إلى ما يقابل من القسط ، ومقابل القسط هو الجور ، لكن حين يقول : ﴿ هُوَ أَقْسَطُ ﴾ نقول له : ذلك أعدل ، فكأن محمدًا بدعوته زيد بن حارثة إليه ؛ وقوله : زيد بن محمد ذلك عدل على طريقته .

ولكن الله فوق محمد أعدل ، ومحمد لا يستنكف أن يُعدِّل الله له حكما أو يصوب له حكما . ذلك هو معنى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ .

وأيضا يقولون : فى أن ذلك صرع ، ! نقول لهم : هاتوا لنا أى مصروع فى الكون لينشئ لنا من آثار صرعته ذلك النظام المحكم الذى يحكم حركة الدنيا كلها من قمة « لا إله إلا الله » إلى « إماطة الأذى عن الطريق » [1] . أذلك يكون حصيلة إنسان عنده صرع كما تقولون ؟! لا . إنكم أنتم الذين تفترون هذا الافتراء .

وبعد ذلك يتطرقون إلى أشياء أخرى ، هذه الأشياء متعلقة بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، يريدون أن يزهدونا برسولنا ، فيضعون له أشياء يجعلونها عليه محل المؤاخذة ومحل اللوم ليسقطوا احترامه من نفوسنا نحن !!

---

(١) روى مسلم [٣٥/ ٥٨] عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه ؛ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة . فأفضلها قول لا إله إلا الله . وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان » .

قوله : « إماطة الأذى » أى تنحيته وإبعاده . والمراد بالأذى كل ما يؤذي من حجر أو مدر أو شوك أو غيره .

نقول لهم : أنتم تأخذون القضايا لتقيسوا بها كمالات رسول الله بقضايا تضعونها للكمالات من عندكم .

وما دمنا آمنا به رسولا من عند الله ، فلا نؤمن به رسولاً ثم نضع له مقاييس الكمال من عندنا ، لنزن الأمور التى فعلها على مقاييس كمالنا . ولكن الكمال ما فعله .

ما دمت أنا آمنت به كرسول . . فيكون الكمال ما فعله .

فعل أو لم يفعل ؛ فإن كان قد فعل ؛ يكون فعله هو الحجة . لماذا ؟

لأنني آمنت بأنه رسول . . وما دام رسولاً ، فهو رسول ائتمنه الله تعالى على أن يبلغ منهجه ، وما دام ائتمنه على أن يبلغ منهجه ، فأمانته صلى الله عليه وسلم على نفسه أولى من أمانته عليّ أنا .

إذن . . أنت لا تناقش أشياء على موازين أنت تدّعى أنها موازين الكمال ، ثم تنسب فعل رسولنا صلى الله عليه وسلم إليها فتقول إنها غير كاملة .

من هذه الأشياء : مسألة تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم : ما دُمت قد كذبته رسولاً ، فلماذا تؤاخذه على أنه فعل أو لم يفعل ؟!

الذي يناقش فى فعل أو لم يفعل إنما يستكثر عليه أن يفعل لولا أنه رسول ، وأنت القضية الأصيلة هو ليس رسولاً عندك ، فكان يجب أن لا تلومه على تصرف .

ولذلك كان النقاش بيننا وبينكم غير مستو . لماذا ؟ لأنك تنظر إلى فعل معزول عن رسول ، وأنا أنظر إلى فعل منوط برسول ، فمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم عندى تجعل لفعله تفسيرا عندى غير تفسيرك له .

وإذا أردنا أن نناقش القضية مناقشة موضوعية نقول : هل الرسول صلى الله عليه وسلم جاء والناس يُعدّدون أم جاء ليشرع التعدد فى الزوجات ؟

الرسول صلى الله عليه وسلم إنما جاء على قوم يعددون .

إذن . . فهو حين عدد لم يكن بدعا فيمن يعدد . إن كان قد سبقه رسول لم يتزوج . . فقد سبقه رسل كثيرون تزوجوا أعدادا متعددة ، فلماذا تجعلون الواحد هو المرجح ولا تجعلون الكثرة هى المرجحة ؟! الواحد إنما جاء لحكمة ، والسابقون قبله عددوا لحكمة .

فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يشرع التعدد ، وإنما جاء والتعدد نظام قائم له ولكل الناس .

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم إن اختلف الأمر فيه بالنسبة إلى من تبعه من المؤمنين ، فإن الرسول جاء فقال إن الله أمره أن يقول لمن تزوج أكثر من أربعة أن يمسك أربعة ويفارق الباقى .

هذا كلام واضح بالنسبة إلى أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن الإباحة لأتباع الرسول كانت إباحة لمعدود أم إباحة لعدد ؟

الإباحة عند أتباع الرسول كانت إباحة لعددٍ ، أربعة ، إن ماتت واحدة يأتى بواحدة مكانها . طلّق واحدة يأتى بواحدة مكانها ، لأنه مباح له العدد . ماتوا الأربعة : ينشئ زواجا لأربعة . طلق الأربعة : ينشئ زواجا لأربعة .

إذن . . فتابع الرسول صلى الله عليه وسلم له العدد .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس له العدد ، وإنما له المعدود . والفرق بين العدد والمعدود : أن المعدود إنما أُبيح للرسول بذواته بحيث لو ماتت واحدة لا يأت بواحدة مكانها . وإن مات هؤلاء جميعا فليس له أن يتزوج ولا واحدة .

إذن . . فقد أبيح له عدد أم أبيح له معدود ؟ أبيح له المعدود .

ما دام قد أبيح له المعدود ، يكون هؤلاء بخصوصهم ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ ﴾ [الأحزاب : ٥٢] .

ذلك حكم ليس لتابع من أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن التابع يحل له النساء من بعد ، وأن يبدل أزواجا .

إذن . . فالعدد - الأربعة - قد يدور عند تابع النبي محمد صلى الله عليه وسلم في أربعين ، بمعنى : تزوج أربعة وطلقهن ، ويرجع يتزوج ويطلقهن ، ويكون العدد دائرا . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم العدد غير دائر عنده لأنه محصور في هؤلاء ، فلو مِتْن جميعا ما حل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج بعدهن ولا واحدة .

فقد أبيح له صلى الله عليه وسلم المعدود ولكن لم يُبح له العدد . وأمته أُبيح لهم العدد ، ولكن ليس في المعدود . والإباحة في العدد غير الإباحة في المعدود .

الرسول صلى الله عليه وسلم تزوج واجتمع عنده من الزوجات « تسع » حين شرع الله تحديد العدد بأربع هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحتفظ بأربعة ويسرح الخمسة ؟ نقول لا . . لماذا ؟

معلوم أن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين ، وما دمن أمهات للمؤمنين فلا يحل لواحد أن يتزوج واحدة منهن[1] .

---

(١) لقوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٦]

قال القرطبي في التفسير : قوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين ؛ أي في وجوب التعظيم والحرمة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال ، وحجبهن رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات . وقيل : لما كانت شفقتهن عليهم كشفقة الأمهات أنزلن منزلة الأمهات ، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثا كأمومة البنين . وجاز تزويج بناتهن ، ولا يجعلن أخوات للناس . واختلف الناس هل هن أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصة ؛ على قولين : فروى الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت لها : يا أمة ؛ فقالت لها : لست لك بأم ، إنما أنا أم رجالكم . قال ابن العربي : وهو الصحيح .

قلت : لا فائدة في اختصاص الحصر في الإباحة للرجال دون النساء ، والذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء ؛ تعظيما لحقهن على الرجال والنساء . يدل عليه صدر الآية : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة . ويدل على ذلك حديث أبي هريرة وجابر ؛ فيكون قوله : ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ عائدا إلى الجميع . ثم إن في مصحف أبي بن كعب « وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » . =

إذن . . فلو سرح رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس نساء وأبقى أربعة ، لبقين - أى الخمسة - بدون زواج ؛ لأنهن محرمات على المؤمنين .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين يطلب من أمته أن الذى عنده أكثر من أربعة يُمسك أربعة ويفارق الباقى ، فالباقى له مندوحة فى أن يذهب لتصير زوجة لرجل آخر . ولكن بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم زوجاته محرمات .

إذن . . فليس لهن إلا أن يبقين زوجات لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأيضا فالمعنى الذى يريد هؤلاء أن يغمزوا به نبينا صلى الله عليه وسلم ، نقول لهم : هذا معنى مرفوض فى تاريخه . . لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى سن الخمسة وعشرين ، قبل أن يُبعث ، تزوج امرأة فى سن الأربعين ، بينه وبينها خمسة عشر سنة . وهذا على غير القاعدة المعروفة فى أن الرجل يتزوج عادة بمن كانت دونه فى السن ، وظل مع خديجة رضوان الله تعالى عليها إلى أن ماتت ، ولما ماتت عرفنا أنه دخل فى عام اسمه « عام الحزن » ؛ مات عمه ، وماتت خديجة . ولم يجد أحدا عنده ليقوم بمسائله ، فكان ولابد أن يتزوج من تقوم بمسائله ، فتزوج « سودة بنت زمعة » ، امرأة تقوم بواجب الزوجية ، وكان ذلك بعد أن عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة وسنها ست سنين .

عقد على زوجته الأولى وهي فى سن الأربعين ، ثم يأتى بالثانية يعقد عليها وعمرها ست سنين ، ويدخل عليها وعمرها تسع سنين .

إذن . . فهى كانت بنتا صغيرة لا تُشتهى بعد . فالسياق الجنسى أو

- وقرأ ابن عباس : « من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم » . وهذا كله يوهن ما رواه مسروق إن صح من جهة الترجيح ، وإن لم يصح فيسقط الاستدلال به فى التخصيص ، ويقينا على الأصل الذى هو العموم الذى يسبق إلى الفهوم . والله أعلم .

السياق العاطفي ممنوع هنا . وبعد ذلك نأتي لنجد في نسائه صلى الله عليه وسلم من تتبرع بليلتها أو بقسمها إلى ضرتها لماذا ؟ . لا يتأتى هذا إلا إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل بين كل نسائه ، هذه ليلة وهذه ليلة وهذه ليلة . فتأتي واحدة منهن لتتنازل عن ليلتها إلى ضرتها [1] .

ما معنى ذلك ؟ مع حرص المرأة على أن تحتفظ بحقها في الزوج . . معنى ذلك : أن هذه شهادة منها أنها في ذاتها لا تصلح أن تكون امرأة يقضي معها الرجل إربته ، وهي فاهمة لماذا تزوجت ؟ تزوجت لمعنى غير هذا .

بدليل أنها قالت : إنني مُتَبرعة بليلتي لعائشة ، فكأنها فهمت من نفسها أنها لا مصلحة لها ولا لرسول الله فيها إلا أن تكون أما للمؤمنين ، وهو وسام من الأوسمة .

كذلك : السيدة أم سلمة رضي الله تعالى عنها ، وعندها العيال كثير وتقول له : أنا لم يعد فيَّ إربة للرجال ، إنما رسول الله يريد أن يجعلها أُمًا للمؤمنين ، ويريد أن يُلقن الناس درسا من أن الإنسان إذا أصيب في عزيز لديه يقول : « اللَّهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منها » .

فحين مات أبو سلمة رضي الله تعالى عنه ، وكانت أم سلمة تحبه ، قلن لها قولي ما علمنا رسول الله ، قالت وماذا قال ؟ قولي : « إنا لله وإنا إليه راجعون اللَّهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منه » فقالت : أو هناك خير من أبي سلمة ؟! وكأنها استبعدت أو استكثرت أن يوجد رجل أحسن من أبي سلمة .

فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمها أن هذا الدعاء لابد أن

---

(١) روى البخاري [٢٥٩٤] ، وأحمد في المسند [٦/ ١١٧] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم تبتغي بذلك رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يأتيها بخير من أبي سلمة ، وحين يكون الذي هو خير من أبي سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يكون هذا طعنا في أبي سلمة رضي الله تعالى عنه .

ولكن لو جاء واحد آخر وتزوجته وقالت خير من أبي سلمة فيمكن أن يخدش أبي سلمة .

لكن حين يُقال : إن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله قد أخذ امرأة أبي سلمة وأصبحت أم سلمة أمًا للمؤمنين ، فهذا يرضيها ويرضي أبا سلمة .

فلما قالت : أوهناك خير من أبي سلمة - قالوا لها : قولي كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبها لنفسه [1] .

إذن . . فالرسول صلى الله عليه وسلم كل زيجة من زيجاته قضية إيمانية ، يريد أن يثبتها رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفوس المؤمنين .

مثلاً : « حفصة » رضي الله تعالى عنها يعرضها أبوها عمر رضي الله تعالى عنه على أبي بكر رضي الله تعالى عنه ويعرضها على عثمان رضي الله

---

(١) روى مسلم [٣/٩١٨] عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله : « إنا لله وإنا إليه راجعون » اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها ، إلا أخلف الله له خيرا منها .

قالت فلما مات أبو سلمة قلت : أي المسلمين خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ثم إني قلتها : فأخلف الله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالت : أرسل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له فقلت : إن لي بنتا وأنا غيور ، فقال : أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها ، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة .

تعالى عنه ، فيحز فى نفس عمر أنه يعرضها ولا يقبل أبو بكر ولا يقبل عثمان ، وبعد ذلك يتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأخذها لنفسه . فهذا تطييب لمن ؟ إنه تطييب لقلب عمر الذى كان وجد فى نفسه أنه عرضها على أبى بكر وعرضها على عثمان ، فلم يقبل واحد منهما فعوضه الله خيرًا منهما ، وأصبحت زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما للمؤمنين .

فدل ذلك على أن الإنسان إذا ما استقبل قدر الله بالرضا عنه ، فإن الله يبدله خيرا منه .

إذن . . كل واحدة من هؤلاء لها قصة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعلى ذلك . . فالزواج من رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن يُلْحَظَ فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوسع عليه فى ذلك ، ولكنه بتعبيرنا نحن ضُيق عليه فى ذلك . لأن الذى عنده أربعة له أن يدير الأربعة فى أربعين ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يزيد عن التسعة ولو مِتْنَ جميعا ما استطاع أن يتزوج ولا واحدة . ذلك هو ما يمكن أن نَرُدَّ به على مَن يقول ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

---

(١) سُئِل الإمام محمد عبده عن الحكمة فى تعدّد زوجات النّبى صلى الله عليه وسلم أكثر مما أباحه القرآن لسائر المؤمنين . فأجاب :

إنّ الحكمة العامة فى تلك الزيادة على الواحدة فى سنّ الكهولة ، والقيام بأعباء الرسالة ، والاشتغال بسياسة البشر ، ومدافعة المعتدين ، دون سنّ الشباب ، وراحة البال ، هى السياسة الرشيدة .

فأمّا خديجة وهي الزوجة الأولى ، فالحكمةُ فى اختيارها وراء سنّة الفطرة معروفة ، وليست من موضوع السؤال .

وقد عقد بعد وفاتها على سَودة بنت زَمْعة ، وكان قد تُوُفّى عنها زوجُها بعد الرجوع من هجرة الحبشة الثانية .

والحكمة فى اختيارها أنها من المؤمنات المهاجرات ؛ الهاجرات لأهليهنّ خوف الفتنة ، =

= ولو عادت إلى أهلها بعد وفاة زوجها - وكان ابن عمّها - لعذّبوها وفتنوها ، فكفلها صلى الله عليه وسلم ، وكافأها بهذه المنة العظيمة .

ثم بعد شهر عقد على عائشة بنت الصدّيق ، والحكمة فى ذلك كالحكمة فى التزوّج بحفصة بنت عمر بعد وفاة زوجها خُنَيس بن حُذافة ببدر ، وهي إكرام صاحبيه ووزيريه أبى بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ، وإقرار أعينهما بهذا الشرف العظيم - كما أكرم عثمان وعليًا رضي الله عنهما - ببنائه ، وهؤلاء أعظم أصحابه ، وأخلصهم خدمة لدينه .

وأمّا التزوّج بزينب بنت جحش ، فالحكمة فيه تعلو كلّ حكمة ؛ وهي إبطال تلك البدع الجاهلية التى كانت لاحقة ببدعة التبنّى ؛ كتحريم التزوج بزوجة المتبنّى بعده وغير ذلك .

ويقرب من هذه الحكمة ، الحكمة فى التزوج بجويرية ، وهي برّة بنت الحارث سيّد قومه بنى المصطلق ، فقد كان المسلمون أسروا من قومها مائتى بيتٍ بالنساء والذرارى ، فأراد صلى الله عليه وسلم أن يعتق المسلمون هؤلاء الأسرى ، فتزوج بسيّدتهم ، فقال الصحابة عليهم الرضوان : أصهارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغى أسرهم ، وأعتقوهم ؛ فأسلم بنو المُصْطَلق لذلك أجمعون ، وصاروا عوناً للمسلمين بعد أن كانوا محاربين لهم ، وعوناً عليهم ، وكان لذلك أثرٌ حَسَنٌ فى سائر العرب .

وقبل ذلك تزوّج صلى الله عليه وسلم بزينبَ بنتِ خُزيمة ، بعد قتل زوجها عبد الله ابن جحش فى أُحُد ، وحكمته فى ذلك أنّ هذه المرأة كانت من فضليات النساء فى الجاهلية ؛ حتى كانوا يدعونها « أمّ المساكين » ، لبرّها بهم وعنايتها بشأنهم ، فكافأها عليه الصلاة والسلام على فضائلها بعد مصابها بزوجها بذلك ، فلم يدعها أرملة تُقاسى الذلّ الذى كانت تجير منه النساس ، وقد ماتت فى حياته .

وتزوّج بعدها أم سلمة - واسمها هند - وكانت هى وزوجها - عبد الله أبو سلمة بن أسد ابن عمة الرسول برّة بنت عبد المطلب وأخوه من الرضاعة - أوّل مَنْ هاجر إلى الحبشة ، وكانت تحب زوجها وتجلّه ، حتى إنّ أبا بكر وعمر خطباها بعد وفاته فلم تقبل ، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظاهرٌ أنّ ذلك الزواج ليس لأجل التمتع المُباح له ، وإنما كان لفضلها الذى يعرفه المتأمّل بجودة رأيها يوم الحديبية ، ولتعزيتها .

وأمّا زواجه بأم حبيبة ، رَمْلَة بنتِ أبى سفيان بن حرب ، فلعل حكمته لا تخفى على إنسان عرف سيرتها الشخصية ، وعرف عداوة قومها فى الجاهلية والإسلام لبنى هاشم ، ورغبة النبى صلى الله عليه وسلم فى تأليف قلوبهم . وكانت رملة عند عبيد الله بن جحش ، وهاجرت معه إلى الحبشة الهجرة الثانية فتنصّر هناك ، وثبتت هى على الإسلام . فكان لابدّ من إنقاذها من الفتنة .

كذلك تظهر الحكمة فى زواج صفية بنت حيى بن أخطب ، سيّد بنى النضير ، وقد قُتل أبوها مع بنى قريظة ، وقُتل زوجها يوم خيبر . وكان أخذها دحيةُ الكلبى من سبى خيبر ، فقال الصحابة : يا رسولَ الله إنها سيدة بنى قريظة والنضير لا تصلح إلا لك . =

= فاستحسن رأيهم ، وأبى أن تُذَلَّ هذه السيدة بأن تكون أسيرة عند مَنْ تراه دونها ، فاصطفاها ، وأعتقها ، وتزوجها .

وآخر أزواجه مَيْمُونة بنتُ الحارثِ الهلالية - وكان اسمها بَرَّة فسماها مَيْمُونة - والذى زوّجها منه هو عمهُ العباس رضي الله تعالى عنه ،كانت جعلت أمرها إليه بعد وفاة زوجها الثانى أبى رهم بن عبد العزّى ، وهي خالة عبد الله بن عباس وخالد بن الوليد . فلا أدرى هل كانت الحكمة فى تزوّجه بها تشعّب قرابتها فى بنى هاشم وبنى مخزوم أم غير ذلك ؟

وجملة الحكمة أنه صلى الله عليه وسلم راعى المصلحة فى اختيار كل زوج من أزواجه عليهنّ الرضوان فى التشريع والتأديب ، فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم ، وعلّم أتباعه احترام النساء ، وإكرام كرائمهن ، والعدل بينهن ، وقرّر الأحكام بذلك . وترك من بعده تسع أمّهات للمؤمنين يُعلّمن نساءهم من الأحكام ما يليق بهن ، مما ينبغى أن يتعلمنه من النساء من دون الرجال ، ولو ترك واحدة فقط لما كانت تغنى فى الأمة غناء التسع . ولو كان عليه السلام أراد بتعدد الزواج ما يريده الملوك والأمراء من التمتع بالحلال فقط ، لاختار حِسان الأبكار على أولئك الثيبات المكتهلات .

تعدد الزوجات.. ما له وما عليه

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾[1] [النساء : ٣] .

المتأمل لشرع الله تعالى يجد بعض الأحكام يشرعها سبحانه إما حلالاً ، وإما حرامًا ، أو مسكوتًا عنه . . والله سبحانه فى هذه الآية لم يفرض على الرجل التعدد . ولكنه أحله له ، فمن شاء عدد ومن شاء اقتصر على واحدة ، وكل حسب قدرته ورغبته .

وتحليل الله تعالى للتعدد له شروط وضوابط عرضها القرآن الكريم حتى

(١) هذا نص فى إباحة التعدد فقد أفادت الآية الكريمة إباحته ، فللرجل فى شريعة الإسلام أن يتزوج واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً ، بأن يكون له فى وقت واحد هذا العدد من الزوجات .

إلا أن هذه الإباحة مقصورة على الجمع بين أربع زوجات كحد أقصى للجمع ، ولا يجوز له الزيادة على الأربع ، وبهذا قال المفسرون والفقهاء ، وأجمع عليه المسلمون ولا خلاف فيه .

ولهذا كان من أسلم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أكثر من أربع زوجات يأمره النبى صلى الله عليه وسلم بإمساك أربع زوجات ويفارق الباقيات .

ولكن هل الاقتصار على زوجة واحدة أولى من التعدد ؟ قال الحنابلة : « ويستحب أن لا يزيد على واحدة إن حصل بها الإعفاف لما فيه من التعرض إلى المحرم ، قال تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء : ١٢٩] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان له امرأتان فمال إلى أحدهما جاء يوم القيامة وشقه مائل »[1] .

المُفَصَّل فى أحكام المرأة والبيت المسلم [٦/ ٢٨٦ : ٢٨٧] .

(١) كشاف القناع [٣/ ٤] . والحديث رواه أبو داود [٢١٣٣] ، والترمذى [١١٤١] ، والنسائى فى المجتبى [٧/ ٦٣/ ٣٩٤٢] ، وابن ماجه [١٩٦٩] وأحمد فى المسند [٢/ ٢٩٥] وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ووافقه الأرناؤوط والألباني ، والدارمى [٢/ ١٩٣] عن أبى هريرة .

لا يكون الأمر فوضى تختل به موازين الأسرة ، هناك فرق بين أن يلزمك الله أن تفعل وبين أن يحل لك أن تفعل أو لا تفعل . وحين يحل لك الله تعالى أن تفعل أو لا تفعل ، ما المرجع فى فعلك ؟ إنه رغبتك وهكذا يظن البعض ، ولكن الحقيقة هى : إنك إذا أخذت الحكم ، فخذ الحكم من كل جوانبه فلا تأخذ الحكم بالتعدد ثم تتغاضى عن الحكم بالعدالة . . إذا حدث هذا فسينشأ الفساد فى الأرض ، وأول هذا الفساد هو تشكك الناس فى دين الله . لماذا ؟ لأنك أخذت التعدد وتركت العدالة . . فأنت تكون قد أخذت شقًا من الحكم ولم تأخذ الشق الآخر وهو العدل .

الناس تجنح أمام التعدد لماذا ؟ لأن الناس شقوا كثيرًا بالتعدد ، أخذوا حكم الله فى التعدد . وتركوا حكم الله فى العدالة . والمنهج الإلهى يجب أن يؤخذ كله . لماذا تكره الزوجة أن يعدد الزوج ؟ لأنها وجدت أن الزوج إذا ما تزوج واحدة عليها التفت الزوج عنها كلية بخيره وبسمته وبحنانه إلى الزوجة الجديدة ؛ حينئذ لابد للمرأة أن تكره زواج الرجل عليها بامرأة أخرى .

إن الذين يأخذون حكم الله فى التعدد يجب أن يلزموا أنفسهم بحكم الله أيضاً فى العدالة . . فإن لم يفعلوا ذلك فهم يشيعون التمرد على حكم الله ؛ وسيجد الناس حيثيات لهذا التمرد . . سيقال : انظر إلى فلان تزوج بأخرى وأهمل الأولى ، أو ترك أولاده بدون رعاية واتجه إلى الزوجة الجديدة فكيف تأخذ إباحة الله فى شىء ولا تأخذ إلزامه سبحانه فى ضوابط ذلك الشىء ؟!

إن من يفعل ذلك فهو يشكك الناس فى دين الله . ويجعل الناس تتمرد على شرع الله .

إذن . . فآفة الأحكام أن يؤخذ حكم جزئى من دون مراعاة الظروف كلها والذى يأخذ حكمًا عن الله لا بد أن يأخذ كل منهج الله . وللنظر إلى إنسان عدل فى العشرة وفى النفقة . وفى المعيشة وفى المكان وفى الزمان . ولم

يجد هناك مبررا لأن يرجح واحدة على أخرى . . فالزوجة الأولى إن رفضت ذلك فهى لن تجد حيثية لها أمام الناس . أما عندما يكون الأمر غير ذى عدل فإنها سوف تجد الحيثية للاعتراض

إذن . . الصراخ الذى نسمعه هذه الأيام إنما نشأ من أن البعض الذى أخذ بالتعدد أعرض عن العدالة ؛ والعدالة إنما تكون فى الأمور التى للرجل فيها خيار ، أما الأمور التى لا خيار فيها للرجل فلم يطالبه الله .

والكارهون للتعدد والذين فى قلوبهم مرض يقولون : إن الله قال : اعدلوا . . ثم حكم أننا لا نستطيع أن نعدل !!

لهؤلاء نقول : هذا من سوء فهمكم للآية الكريمة ، فالآية أحلت التعدد بشرط العدالة ، ومن لا يستطيع العدالة فلا حق له فى التعدد ، فهؤلاء أخذوا قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء : ١٢٩] ؛ وتركوا قوله سبحانه : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٢٩] .

الله سبحانه وتعالى قد ألمح على عدم الاستطاعة فى العدل المطلق عند البعض ولكنه سبحانه قد أبقى الحكم ولم يلغه ؛ لأن هناك من يستطيع أن يعدل .

ولنا أسوة حسنة فى الرعيل الأول من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم والتابعين ومن بعدهم عددوا وعدلوا ، ولا تزال طائفة من هذه الأمة على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وحكم الله تعالى قائم وباق إلى يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ .

وأما تكملة الآية فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ [النساء : ٣] . فشرط مرجعه شخص المُكَلف ، بمعنى أنه إذا خاف ألا يعدل فعليه أن يقتصر على زوجة واحدة ،

وإن استطاع العدل بينهن بالسوية كما أشرنا سابقًا ، فقد أحل الله له التعدد[1] .

---

(١) شروط إباحة تعدد الزوجات

الشرط الأول - العدل : قال تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء : ٣] ، أفادت هذه الآية الكريمة أن « العدل » شرط لإباحة التعدد ، فإذا خاف الرجل من عدم العدل بين زوجاته إذا تزوج أكثر من واحدة ، كان محظورا عليه الزواج بأكثر من واحدة .

ولا يشترط اليقين من عدم العدل لحرمة الزواج بالثانية ، بل يكفي غلبة الظن ، فإذا كان غالب ظنه أنه إذا تزوج زوجة أخرى مع زوجته ، لم يستطع العدل بينهما حرم عليه هذا الزواج .

والمقصود بالعدل المطلوب من الرجل لإباحة التعدد له ، هو التسوية بين زوجاته في النفقة والكسوة والمبيت ونحو ذلك من الأمور المادية مما يكون في مقدوره واستطاعته .

أما التسوية بين زوجاته في المحبة وميل القلب ونحو ذلك من الأحاسيس ، فهذه الأمور غير مكلف بها ، ولا مطالب بالعدل فيها بين زوجاته ؛ لأنه لا يستطيعها ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ ، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »[1] . أي في المحبة لبعض أزواجه أكثر من البعض الآخر .

فالعدل الذي هو شرط لإباحة التعدد في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ هو العدل في الأمور المادية المستطاعة والمقدور عليها كالنفقة والكسوة والمبيت .

أما العدل غير المستطاع بين الزوجات والمشار إليه في قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ ، فهو العدل في المحبة وميل القلب ، وبهذا قال المفسرون .

والشرط الثاني لإباحة التعدد : القدرة على الإنفاق على الزوجات : أي القدرة على الإنفاق على زوجته القديمة وزوجته الجديدة ، والواقع أن شرط الإنفاق على الزوجة هو شرط لزواج الرجل ، سواء كان هذا الزواج بالزوجة الأولى أو بالثانية ، ويبقى هذا الالتزام ثابتاً في ذمة الرجل نحو زوجته ما دامت زوجته ، ولا يسقط عنه بزواجه بأخرى ، بل يزيد التزامه التزاماً آخر بالنفقة على زوجته الثانية ، فإذا كان عاجزا عن الإنفاق على زوجته الثانية مع الأولى ، حرم عليه الزواج بالثانية .

وقد دل على هذا الشرط : شرط الإنفاق قوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور : ٣٣] ، فقد أمر الله تعالى بهذه الآية الكريمة من يقدر على =

---

(١) رواه أبو داود [٢١٣٤] ، والترمذي [١١٤٠] ، والنسائي في المجتبى [٧/ ٦٣/ ٣٩٤٣] ، وابن ماجه [١٩١٧] وقال الألباني : ضعيف ، وأحمد في المسند [٦/ ١٤٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، وقال الأرناؤوط : هذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين .

قلنا : إن المؤمن يجب ألا يجعل منهج الله فى حركة حياته عضين ، بمعنى أنه يأخذ حكماً فى صالحه ويترك حكماً عليه . فالمنهج من الله يجب أن يؤخذ جملة من كل الناس لأن أى انحراف فى فرد من أفراد الأمة الإسلامية يصيب المجموع بضرر . . فكل حق لك أيها المسلم واجب عند غيرك ، فإن أردت أن تأخذ حقك فأدِّ واجبك[1] .

= النكاح ولا يجده بأي وجه تعذر أن يستعفف ، ومن وجوه تعذر النكاح من لا يجد ما ينكح به من مهر ، ولا قدرة له على الإنفاق على زوجته .

وكذلك يستدل على شرط الإنفاق بقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعُولُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء : ٣] ، فقد روى عن الإمام الشافعي أنه قال فى معنى : ﴿ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ : « أى : ألا يكثر عيالكم »[1] .

وفى هذا إشارة إلى شرط الإنفاق ؛ لأن الخوف من كثرة العيال لما تؤدى إليه هذه الكثرة من ضرورة كثرة الإنفاق التى قد يعجز عنها من يريد الزواج بأكثر من واحدة ، فيفهم من ذلك أن القدرة على الإنفاق على الزوجات عند إرادة التعدد شرط لإباحة هذا التعدد ، كذلك قد يستدل على شرط القدرة على الإنفاق بالحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[2] .

فإذا لم يستطع على مؤونة الزواج لم يجز له الزواج وإن كان هو زواجه الأول ، فمن باب أولى أن لا يباح له الزواج بالثانية وعنده زوجة إذا كان عاجزا عن الإنفاق على الثانية مع إنفاقه على الأولى .

ثم إن الإقدام على الزيجة الثانية مع علمه بعجزه عن الإنفاق عليها مع الأولى عمل يتسم بعدم المبالاة بأداء حقوق الغير ، ويعتبر من أنواع الظلم ، والظلم لا يجوز فى شرعة الإسلام .

وبناء على جميع ما تقدم ، يعتبر من الظلم المحظور أن يقدم الرجل على الزواج بأخرى مع وجود زوجة عنده ، ومع علمه بعجزه عن الإنفاق على زوجته الجديدة والقديمة .

المُفصّل فى أحكام النساء [٦/ ٢٨٧ : ٢٨٩] .

(١) **حكمة تعدد الزوجات :**

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان : والحكمة من تعدد الزوجات بعد توافر شروطه ، هذه =

---

(١) الفخر الرازى [٩/ ١٧٧] .

(٢) رواه البخارى [٥٠٦٦] ، ومسلم [١٤٠٠/ ١] عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه

والذين يأخذون حكم الله فى إباحة التعدد . . عليهم أن يأخذوا حكم

= الحكمة ظاهرة جلية بالنسبة للرجل والمرأة وبالنسبة للمجتمع ، ونذكر فيما يلى بعض وجوه هذه الحكمة :

أولاً : قد تكون الزوجة عقيمة أو لا تصلح للحياة الزوجية لمرضها ، والزوج يتطلع إلى الذرية وهو تطلع مشروع ، ولا سبيل لذلك إلا بالزواج بأخرى .

ثانياً : وقد لا يكفى الرجل زوجة واحدة لنشاطه الجنسى ، والمرأة عادة تكون معطلة وعاجزة عن مشاركته هذا النشاط .

ثالثاً : وقد تكون المرأة من أقارب الرجل ولا معيل لها ، وهي غير متزوجة ، أو أرملة مات زوجها ، ويرى هذا الرجل أن من أحسن الإحسان لها أن يضمها إلى بيته زوجة مع زوجته الأولى ، فيجمع لها الإعفاف والإنفاق عليها .

رابعاً : وقد تكون المرأة قد مات زوجها شهيدا وهي لا تزال شابة أو بحاجة إلى زوج ، فمن الخير والصيانة لها أن تكون زوجة ثانية لزوج يرغب فى نكاحها وترغب فى نكاحه .

خامساً : قد يكون فى زمان معين أو مكان معين عدد النساء أكثر من عدد الرجال ، ولا سبيل إلى تصريف الزائد من عدد النساء إلا عن طريق تعدد الزوجات .

سادساً : هناك مصالح مشروعة تدعو إلى الأخذ بالتعدد : كالحاجة إلى توثيق روابط بين عائلتين ، أو توثيق الروابط بين رئيس وبعض أفراد رعيته أو جماعته .

سابعاً : وفى أعقاب الحروب تظهر عادة مشكلة كثرة النساء ، وقلة الرجال بسبب فقد الأزواج والرجال ، وما ينتج عن ذلك من كثرة الأرامل والنساء الباكرات مع قلة الرجال ، وهذه مشكلة خطيرة جدًا وتلقى بثقلها على المجتمع المبتلى بها ، ولا سبيل لحلها إلا بالتعدد .

ثامناً : وفى التعدد كثرة النسل ، وكثرة الأيدى العاملة ، وفى هذه الكثرة قوة للأمة ، وزيادة فى إنتاجها ، ومصلحة مؤكدة لأفراد العائلة .

اعتراض : وقد يعترض البعض ويقول : إن فى تعدد الزوجات وجود الضرائر فى البيت الواحد ، وما ينشأ عن ذلك أو يترتب عليه من منافسات وعداوات بين الضرائر تنعكس على من فى البيت من زوج وأولاد وغيرهم . وهذا ضرر ، والضرر يزال ، ولا سبيل إلى منعه إلا بمنع تعدد الزوجات .

دفع الاعتراض : والجواب : أن النزاع فى العائلة قد يقع بوجود زوجة واحدة ، وقد لا يقع مع وجود أكثر من زوجة واحدة كما هو المشاهد . وحتى لو سلمنا باحتمال النزاع والخصام على نحو أكثر مما قد يحصل مع الزوجة الواحدة ، فهذا النزاع حتى لو اعتبرناه ضررا وشرا إلا أنه ضرر مغمور فى خير كثير ، وليس فى الحياة شر محض ولا خير محض ، والمطلوب دائماً تغليب ما كثر خيره وترجيحه على ما كثر شره ، وهذا القانون هو المأخوذ والملاحظ فى إباحة تعدد الزوجات .

اعتراض آخر : وقد يقال أيضاً : إن الأخذ بإباحة التعدد يهدم قاعدة المساواة بين الرجل=

الله أيضاً فى العدل . . وإلا فقد أعطوا خصوم الدين حججا قوية فى الصد عن سبيل الله ويجرئونهم على تغيير ما شرع الله بحجة ما يرونه من آثار أخذ حكم وإهمال حكم آخر .

والعدل المراد فى التعدد هو القسمة بالسوية فى المكان ، أى أن لكل واحدة من المتعددات مكاناً يساوى مكان الأخرى ؛ وفى الزمان ، أى : يقسم بينهن فى المبيت ، ويعطى كل واحدة حقها من الوقت . وفى متاع المكان ، وفيما يخص الرجل من متاع نفسه . فليس له أن يجعل شيئاً له قيمة عند واحدة ، وشيئاً لا قيمة له عند واحدة أخرى . . لا ، لابد من المساواة . . لا فى متاعها فقط . . بل متاعك أنت أيها المسلم الذى تتمتع به عندها ؛ حتى إن بعض المسلمين الأوائل كان يساوى بينهن فى النعال التى يلبسها فى بيته ؛ فيأتى بها من لون واحد وشكل واحد وصنف واحد وذلك حتى لا تفاخر واحدة منهن على الأخرى قائلة : إن زوجى يكون عندى فى أحسن هندام منه عندك .

والعدالة المطلوبة أيضاً هى : العدالة فيما يدخل فى اختيارك لأن العدالة التى لا تدخل فى اختيارك لا يكلف الله بها . . فأنت عدلت فى المكان وفى الزمان وفى المتاع لكل واحدة . ولكنك لا تستطيع أن تعدل بميل قلبك وحب نفسك ؛ لأن ذلك ليس فى قدرتك ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تَلُمْنِى فيما تملك ولا أملك »[1] .

= والمرأة ؛ لأن المرأة ممنوعة من تعدد الأزواج ، بينما يباح للرجل تعدد الزوجات ، ولا سبيل إلى رفع هذا الحَيْف إلا بمنع التعدد .

دفع هذا الاعتراض : والجواب : أن المساواة فى الحقوق لا تعنى المساواة بينهما فى كل ما يعطاه الرجل وفى كل ما تعطاه المرأة ، وإنما المساواة أن يعطى كل منهما ما يستحق إعطاءه .

المُفَصَّل فى أحكام المرأة والبيت المسلم [٦/ ٢٨٩ : ٢٩١] بتصرف .

(١) رواه أبو داود [٢١٣٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، وقال الألبانى : ضعيف .

إذن . . هذا معنى قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٢٩] .

هناك أشياء لا تدخل فى قدرتك ولا تدخل فى اختيارك ، مثال ذلك كأن ترتاح نفسيًا عند واحدة ولا ترتاح نفسيًا عند أخرى ، لكن الأمر الظاهر للكل يجب أن تكون فيه القسمة بالسوية حتى لا تفضل واحدة على الأخرى وحتى لا تعطى الكارهين لدين الله ثغرة ينفذون منها إلى شرع الله تعالى[1] .

---

(١) قال العلامة أحمد شاكر : نبتت فى عصرنا هذا الذى نحيا فيه نابتة إفرنجية العقل ، نصرانية العاطفة ، رباهم الإفرنج فى ديارنا وديارهم ، وأرضعوهم عقائدهم ، صريحة تارة ، وممزوجة تارات . حتى لبسوا عليهم تفكيرهم ، وغلبوهم على فطرتهم الإسلامية . فصار هجيرهم وديدنهم أن ينكروا تعدد الزوجات ، وأن يروه عملاً بشعا غير مستساغ فى نظرهم! فمنهم من يصرح ، ومنهم من يجمجم . وجاراهم فى ذلك بعض من ينتسب إلى العلم من أهل الأزهر ، المنتسبين للدين ، والذين كان من واجبهم أن يدفعوا عنه ، وأن يعرّفوا الجاهلين حقائق الشريعة .

فقام من علماء الأزهر من يعهد لهؤلاء الإفرنجيى العقيدة والتربية للحدّ من تعدد الزوجات ، زعموا!! ولم يدرك هؤلاء العلماء! أن الذين يحاولون استرضاءهم لا يريدون إلا أن يزيلوا كل أثر لتعدد الزوجات فى بلاد الإسلام ، وأنهم لا يرضون عنهم إلا أن جارَوْهم فى تحريمه ومنعه جملة وتفصيلاً . وأنهم يأبون أن يوجد على أيّ وجه من الوجوه ؛ لأنه منكر بشع فى نظر سادتهم الخواجات!!

وزاد الأمر وطمّ ، حتى سمعنا أن حكومة من الحكومات التى تنتسب للإسلام وضعت فى بلادها قانوناً منعت فيه تعدد الزوجات جملة ، بل صرحت تلك الحكومة باللفظ المنكر : إن تعدد الزوجات - عندهم - صار حراماً . ولم يعرف رجال تلك الحكومة أنهم بهذا اللفظ الجريء المجرم صاروا مرتدين خارجين من دين الإسلام ، تجرى عليهم وعلى من يرضى عن عملهم كلُّ أحكام الردّة المعروفة ، التى يعرفها كل مسلم . بل لعلهم يعرفون ويدخلون فى الكفر والردّة عامدين عالمين .

بل إن أحد الرجال الذين ابتلى الأزهر بانتسابهم إلى علمائه ، تجرأ مرة وكتب بالقول الصريح : إن الإسلام يحرم تعدد الزوجات ، جرأة على الله ، وافتراء على دينه الذى فرض أن يكون هو من حفظته القائمين على نصره!!

واجترأ بعض من يعرف القراءة والكتابة من الرجال والنسوان - فجعلوا أنفسهم مجتهدين فى الدين!! يستنبطون الأحكام ، ويفتون فى الحلال والحرام ، ويسبون علماء الإسلام إذا=

= أرادوا أن يعلموهم ويوقفوهم عند حدهم . وأكثرُ هؤلاء الأجراء ، من الرجال والنساء ، لا يعرفون كيف يتوضأون ولا كيف يصلون ، بل لا يعرفون كيف يتطهرون ، ولكنهم فى مسألة تعدد الزوجات مجتهدون!!

بل لقد رأينا بعض من يخوض منهم فيما لا يعلم ، يستدل بآيات القرآن بالمعنى ؛ لأنه لا يعرف اللفظ القرآنى!!

وعن صنيعهم هذا الإجرامى ، وعن جرأتهم هذه المنكرة ، وعن كفرهم البواح دخل فى الأمر غير المسلمين ، وكتبوا آراءهم مجتهدين!! كسابقيهم ، يستنبطون من القرآن وهم لا يؤمنون به ، ليخدعوا المسلمين ويضلوهم عن دينهم . حتى إن أحد الكتاب غير المسلمين كتب فى إحدى الصحف اليومية التى ظاهر أمرها أن أصحابها مسلمون كتب مقالاً بعنوان : « تعدد الزوجات وصمة » ! فشتم بهذه الجرأة الشريعة الإسلامية ، وشتم جميع المسلمين من بدء الإسلام إلى الآن! ولم نجد أحدا حرك فى ذلك ساكنا . مع أن اليقين أن لو كان العكس ، وأن لو تجرأ كاتب مسلم على شتم شريعة ذلك الكاتب ، لقامت الدنيا وقعدت . ولكن المسلمين مؤدبون .

وبعد : فإن أول ما اصطنعوا من ذلك : أن اصطنعوا الشفقة على الأسرة وعلى الأبناء خاصة! وزعموا أن تعدد الزوجات سبب لكثرة المشردين من الأطفال! بأن أكثر هؤلاء من آباء فقراء تزوجوا أكثر من واحدة! وهم فى ذلك كاذبون ، والإحصاءات التى يستندون إليها هى التى تكذبهم . فأرادوا أن يشرعوا قانوناً يحرم تعدد الزوجات على الفقير ويأذنون به للغنىّ القادر!! فكان هذا سوأة السوءات ، أن يجعلوا هذا التشريع الإسلامى السامى وقفاً على الأغنياء!

ثم لم ينفع هذا ولم يستطيعوا إصداره ، فاتجهوا وجهة أخرى يتلاعبون فيها بالقرآن :

فزعموا أن إباحة التعدد مشروطة بشرط العدل ، وأن الله سبحانه أخبر بأن العدل غير مستطاع ، فهذه أمارة تحريمه عندهم!! إذ قصروا استدلالهم على بعض الآية وتركوا باقيها : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء : ١٢٩] وتركوا باقيها : ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء : ١٢٩] . فكانوا كالذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض! ثم ذهبوا يتلاعبون بالألفاظ ، وببعض القواعد الأصولية ، فسمّوْا تعدد الزوجات « مباحاً » ! وأن لولى الأمر أن يقيد بعض المباحات بما يرى من القيود للمصلحة!

وهم يعلمون أنهم فى هذا كله ضالون مضلُّون . فما كان تعدد الزوجات مما يطلق عليه لفظ « المباح » بالمعنى العلمى الدقيق : أى المسكوت عنه ، الذى لم يرد نص بتحليله أو تحريمه ، وهو الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما أحل الله فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو »[1] . بل إن القرآن نصّ صراحة =

(١) رواه الترمذى [١٧٢٦] ، وابن ماجه [٣٣٦٧] عن سلمان الفارسي ، وقال الألبانى : حسن .

على تحليله ، بل جاء إحلاله بصيغة الأمر ، التي أصلها للوجوب : ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ .

وإنما انصرف فيها الأمر من الوجوب إلى التحليل بقوله : ﴿ مَا طَابَ لَكُم ﴾ .

ثم هم يعلمون - علم اليقين - أنه حلال بكل معنى كلمة « حلال » ، بنص القرآن ، وبالعمل المتواتر الواضح الذي لا شك فيه ، منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى اليوم . ولكنهم قوم يفترون!

وشرط العدل في هذه الآية : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء : ٣] ، شرط شخصي لا تشريعي ، أعني : أنه شرط مرجعه لشخص المكلف ، لا يدخل تحت سلطان التشريع والقضاء . فإن الله قد أذن للرجل بصيغة الأمر أن يتزوج ما طاب له من النساء ، بدون قيد بإذن القاضي أو بإذن القانون أو بإذن ولي الأمر أو غيره ، وأمره أنه إذا خاف - في نفسه - أن لا يعدل بين الزوجات أن يقتصر على واحدة . وبالبداهة أن ليس لأحد سلطان على قلب المريد الزواج ، حتى يستطيع أن يعرف ما في دخيلة نفسه من خوف الجور أو عدم خوفه ، بل ترك الله ذلك لتقديره في ضميره وحده . ثم علّمه الله سبحانه أنه على الحقيقة لا يستطيع إقامة ميزان العدل بين الزوجات إقامة تامة لا يدخلها ميل ، فأمره أن لا يميل « كل الميل فيذر بعض زوجاته كالمعلقة » . فاكتفى ربه منه في طاعة أمره بالعدل أن يعمل منه بما استطاع ، ورفع عنه ما لم يستطع .

وهذا العدل المأمور به مما يتغير بتغير الظروف ، ومما يذهب ويجيء بما يدخل في نفس المكلف . ولذلك لا يعقل أن يكون شرطاً في صحة العقد . بل هو شرط نفسي متعلق بنفس المكلف وبتصرفه في كل وقت بحسبه .

فربَّ رجل عزم على الزواج المتعدد ، وهو مصرّ في قلبه على عدم العدل ، ثم لم ينفذ ما كان مصرًّا عليه ، وعدل بين أزواجه . فهذا لا يستطيع أحد بعقل الشرائع أن يدعي أنه خالف أمر ربه . إذ إنه أطاع الله بالعدل ، وعزيمته في قلبه من قبلُ لا أثر لها في صحة العقد أو بطلانه بداهةً خصوصاً وأن النصوص كلها صريحة في أن الله لا يؤاخذ العبد بما حدّث به نفسه ، ما لم يعمل به أو يتكلم[1] .

وربَّ رجل تزوج زوجة أخرى عازماً في نفسه على العدل ، ثم لم يفعل ، فهذا قد ارتكب الإثم بترك العدل ومخالفة أمر ربه . ولكن لا يستطيع أحد بعقل الشرائع أن يدعي أن هذا الجور المحرّم منه قد أثّر على أصل العقد بالزوجة الأخرى ، فنقله من الحلّ والجواز إلى الحرمة والبطلان . إنما إثمه على نفسه فيما لم يعدل ، ويجب عليه طاعة ربه في إقامة العدل . وهذا شيء بديهي لا يخالف فيه من يفقه الدين والتشريع .

(١) روى البخاري [٢٥٢٨] ، ومسلم [٢٠١/١٢٧] واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به » .

والقوم أصحاب هوى ركب عقولهم ، لا أصحاب علم ولا أصحاب استدلال ، يحرفون الكلم عن مواضعه . ويلعبون بالدلائل الشرعية من الكتاب والسنة ما وسعهم اللعب .

فمن آلاعيبهم : أن يستدلوا بقصة على بن أبي طالب ، حين خطب بنت أبي جهل في حياة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم حين استؤذن في ذلك قال : « فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فإنما هي بضعة مني ، يريبني ما أرابها ، ويؤذيني ما آذاها » . ولم يسوقوا لفظ الحديث ، إنما لخصوا القصة تلخيصا مريبا! ليستدلوا بها على أن النبي صلى الله عليه وسلم يمنع تعدد الزوجات ، بل صرح بعضهم بالاستدلال بهذه القصة على ما يزعم من التحريم! لعبا بالدين ، وافتراءً على الله ورسوله .

ثم تركوا باقي القصة ، الذي يدمغ افتراءهم . ولا أقول استدلالهم وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحادثة نفسها : « وإني لست أحرّمُ حلالاً ، ولا أحلُّ حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدوّ الله مكاناً واحداً أبداً » .

واللفظان الكريمان رواهما الشيخان : البخاري ومسلم[1] .

فهذا رسول الله ، المبلغ عن الله ، والذي كلمته الفصل في بيان الحلال والحرام ، يصرح باللفظ العربي المبين في أدق حادث يمسّ أحب الناس إليه ، وهي ابنته الكريمة السيدة الزهراء بأنه لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً ، ولكنه يستنكر أن تجتمع بنت رسول الله وبنت عدوّ الله في عصمة رجل واحد .

وعندي وفي فهمي : أنه صلى الله عليه وسلم لم يمنع عليًا من الجمع بين بنته وبنت أبي جهل بوصفه رسولاً مبلغاً عن ربه حكماً تشريعيًا ، بدلالة تصريحه بأنه لا يحرم حلالاً ولا يحل حراما ، وإنما منعه منعا شخصيا بوصفه رئيس الأسرة التي منها علي ابن عمه وفاطمة ابنته ، بدلالة أن أسرة بنت أبي جهل هي التي جاءت تستأذنه فيما طلب إليهم علي رضي الله تعالى عنه . وكلمة رئيس الأسرة مطاعة من غير شك ، خصوصاً إذا كان ذلك الرئيس هو سيد قريش ، وسيد العرب ، وسيد الخلق أجمعين . صلى الله عليه وسلم .

وليس بالقوم استدلال أو تحرّ لما يدل عليه الكتاب والسنة ، ولا هم من أهل ذلك ولا يستطيعونه . إنما بهم الهوى إلى شيء معين ، يتلمسون له العلل التي قد تدخل على الجاهل والغافل .

بل إن في فلتات أقلامهم ما يكشف عن خيبتهم ، ويفضح ما يكنون في ضمائرهم .

ومن أمثلة ذلك : أن موظفا كبيرا في إحدى وزاراتنا كتب مذكرة أضفى عليها الصفة الرسمية ، ونشرت في الصحف منذ بضع سنين ، وضع نفسه فيها موضع المجتهدين ، لا في التشريع الإسلامي وحده ، بل في جميع الشرائع والقوانين فاجترأ على أن يعقد=

(١) رواه البخاري [٣١١٠، ٥٢٣٠] ، ومسلم [٢٤٤٩/ ٩٣، ٩٦] من حديث المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه .

= موازنة بين الدين الإسلامي في إحلاله تعدد الزوجات ، وبين الأديان الأخرى - زعم!! - وبين قوانين الأمم حتى الوثنية منها! ولم يجد في وجهه من الحياء ما يمنعه من الإيحاء بتفضيل النصرانية التي تحرم تعدد الزوجات ، ومن ورائها التشريعات الأخرى التي تسايرها ، بل يكاد قوله الصريح ينبئ عن هذا التفضيل!!

ونسي أنه بذلك خرج من الإسلام بالكفر البواح ، على الرغم من أن اسمه يدل على أنه ولد على فراش رجل مسلم . إلى ما يدل عليه كلامه من جهله بدين النصارى ، حتى عقد هذه المفاضلة!! فإن اليقين الذي لا شك فيه : أن سيدنا عيسى عليه السلام لم يحرم تعدد الزوجات الحلال في التوراة التي جاء هو مصدقاً لها بنص القرآن الكريم . وإنما حرمه بعض البابوات بعد عصر سيدنا عيسى بأكثر من ثمانمائة سنة على اليقين . بما جعل هؤلاء لأنفسهم من حق التحليل والتحريم ، الذي نعاه الله عليهم في الكتاب الكريم : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] ، والذي فسّره الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين استفسر منه عدي بن حاتم الطائي الذي كان نصرانيًا وأسلم إذ سمع هذه الآية فقال : إنهم لم يعبدوهم ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم »[1] .

فيا أيها المسلمون : لا يستجرينكم الشيطان ، ولا يخدعنكم أتباعه وأتباع عابديه ، فتستخفوا بهذه الفاحشة التي يريدون أن يذيعوها فيكم ، وبهذا الكفر الصريح الذي يريدون أن يوقعوكم فيه . فليست المسألة مسألة تقييد مباح أو منعه ، كما يريدون أن يوهموكم . وإنما هي مسألةٌ في صميم العقيدة : أتُصرُّون على إسلامكم وعلى التشريع الذي أنزله الله إليكم وأمركم بطاعته في شأنكم كله ؟ أم تعرضون عنهما والعياذ بالله فتتردوا في حمأة الكفر ، وتتعرضوا لسخط الله ورسوله ؟ هذا هو الأمر على حقيقته .

إن هؤلاء القوم الذين يدعونكم إلى منع تعدد الزوجات لا يتورع أكثرهم عن اتخاذ العدد الجم من العشيقات والأخدان ، وأمرهم معروف مشهور . بل إن بعضهم لا يستحيي من إذاعة مباذله وقاذوراته في الصحف والكتب ، ثم يرفع علم الاجتهاد في الشريعة والدين ، ويزري بالإسلام والمسلمين .

إن الله حين أحل تعدد الزوجات بالنص الصريح في القرآن - أحله في شريعته الباقية على الدهر ، في كل زمان وكل عصر . وهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون . فلم يعزب عن علمه عز وجل ما وقع من الأحداث في هذا العصر ، ولا ما سيقع فيما يكون في العصور القادمة . ولو كان هذا الحكم مما يتغير بتغير الزمان - كما يزعم الملحدون الهدامون لنصّ على ذلك في كتابه أو في سنة رسوله : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي =

[1] رواه الترمذي [٣٠٩٥] بلفظ : « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه » . وقال الألباني : حسن .

﴿ ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٦] .

والإسلام بريء من الرهبانية ، وبريء من الكهنوت . فلا يملك أحد أن ينسخ حكماً أحكمه الله في كتابه أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يملك أحد أن يحرم شيئاً أحله الله ، ولا أن يحل شيئاً حرمه الله ، لا يملك ذلك خليفة ولا ملك ، ولا أمير ولا وزير . بل لا يملك ذلك جمهور الأمة ، سواء بإجماع أم بأكثرية ، الواجب عليهم جميعاً الخضوع لحكم الله ، والسمع والطاعة .

اسمعوا قول الله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل] .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩] .

ألا فلتعلمن أن كل من حاول تحريم تعدد الزوجات أو منعه ، أو تقييده بقيود لم ترد في الكتاب ولا في السنة ، فإنما يفترى على الله الكذب .

ألا فلتعلمنَّ أن « كل امرئ حسيب نفسه » [1] ، فلينظر امرؤ لنفسه أنى يصدر وأنى يرد .

وقد أبلغتُ . والحمد لله رب العالمين .

عمدة التفسير [٣/ ١٠٢ : ١٠٩] .

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد في المسند [٢ / ٣٠٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح . وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف لضعف شهر بن حوشب ، وباقي رجاله ثقات . وحسنه الشيخ حسين أسد في مسند أبي يعلى [١١ / ٢٨٥ / ٦٣٩٩] وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [٥ / ٦٥] رواه أحمد وأبو يعلى وفيه شهر بن حوشب وفيه ضعف وهو حسن الحديث وبقية رجال أحمد رجال الصحيح .

التعدد لا يوجد إلا فى فائض

ثم يقولون للمرأة كما حدث أيضاً فى بعض الكتب : إن الإسلام لا يجعل للمرأة حق الانفراد بالرجل ، بينما يجعل الرجل منفردا هو بالمرأة أو بالمرأتين أو بالثلاث أو بالأربع .

ونقول لهم فى ذلك : إن هذه القضية عولجت اجتماعيا وعولجت اقتصاديا ، وعولجت صحيا . فلم يجدوا حلا لها سوى ما قضى به الإسلام الحل المنطقى .

نقول : المرأة التى تعترض على هذا الحكم أهي متزوجة أم غير متزوجة ؟!

خمسة وتسعون فى المائة من المانعات متزوجات ، فنقول لها : لا رأي لك ؛ لأنك متهمة فى إبداء هذا الرأي لأنك لا تحبي الشريكة لك . ولكن لنأخذ رأي من لم تتزوج ، فهي تكون على الحياد .

ألا تكونين زوجة ثانية بدل أن لا تكوني زوجة ؟

فسيكون الجواب : نعم ؛ أكون زوجة ثانية بدل أن لا أكون زوجة .

والثانية كذلك ، والرابعة كذلك .

فلو أننا استفتينا النساء اللائى لم يتزوجن لما وجدنا واحدة منهن تكون على غير رأي الإسلام .

ولكن المرأة التى حصلت على رجل لا تحب أحدا أن يشاركها فيه .

إذن فالرجل ليس ضد المرأة ، والدين ليس ضد المرأة ، وإنما المرأة هى ضد المرأة .

وأيضاً فالتعدد منطقيًا وواقعيًا وفلسفيًا فى أى شىء لا يمكن أن يتعدد شىء على شىء إلا إن كان المتعدد فائضاً .

فإذا كان المتعدد فائضاً ، فطبيعي أن يتعدد وفائض يعني زائد عن الأصل .

ولنضرب مثلاً يقرب ما نقول : دخل جماعة هم عشرة فى حجرة فيها عشر كراسى ، كل واحد أخذ كرسي ولا خلاف .

فإذا دخل العشرة فوجدوا اثنى عشر كرسيا ، أخذ واحد كرسيًا وجلس عليه ، ثم أخذ كرسيًا آخر فاتكأ عليه .

لا يمكن أن يعدد لنفسه كرسيين واحد للجلوس وواحد للاتكاء إلا إذا كان هناك فائض . إذن . . فالتعدد لا يأتي إلا عن فائض .

هذه القضية خدمتها الإحصاءات الحديثة ، فحين جاءت الإحصاءات الحديثة بالبيانات ولو استطاع أى واحد منا أن يعمل إحصاء فى قطاعه السكني أو فى قريته لوجد الإحصاء منطقيا . لأننا إذا نظرنا إلى عالم التكاثر فى الكون ، وعالم التكاثر نعرفه فى الإنسان ، ونعرفه فى الحيوان ونعرفه فى النبات .

وجدنا أن هذا التكاثر ينشأ من لقائين :

- لقاء الموجب بالسالب .
- أو : لقاء الذكر بالأنثى . أى : اللقاح بين ذكر وبين أنثى .

فإذا ما نظرنا بالاستقراء إلى مفردات الذكران ، وإلى مفردات الإناث ، وجدنا دائماً أن الإناث هن الكثيرات ، والذكورة محصورة ، قد تكون فى واحد أو فى اثنين .

وقلنا : لننظر إلى مزرعة نخيل ، ثم نصنع إحصاء لعدد النخلات الأنثى ، وعدد النخل الذكر .

نجد أن النخل الذكر فى المائة مرة يكون واحدا ، ومرة يكون اثنين ،

ولم يصلوا ثلاثة إلا عشرة فى المائة ، والباقي إناث . . لماذا ؟

لأن الذكر يُخصب أكثر من أنثى ، والأنثى لا تُخصب من ذكران

وكذلك إذا ما جئنا لمائة بيضة ، وفرختاها ، ثم أحصينا ما فيها من الديوك وما فيها من الدجاجات ، وجدنا أن عدد الإناث أكثر من عدد الديوك .

أمر طبيعي فى عالم التكاثر .

كذلك فى الإنسان ، فالإناث عددهن أكثر من عدد الرجال .

هذا إذا صرفنا النظر عما يطرأ على جنس الذكور - وإن كانوا متساويين مع الإناث - من التعرض للجهاد والصدامات والقتال و . . . إلخ .

إذن . . فعنصر الإناث أكثر دائماً من عنصر الرجال ، فى كل عالم من عوالم التكاثر .

فإذا كان الأمر كذلك ولا تعدد إلا عن فائض ، فسنقول لمن يقول هذا : أعط كل ذكر أنثى ، ثم ستجد الفائض أنثيات ، هذه الأنثيات ما موقفها فى المجتمع ؟!

موقفها فى المجتمع : إما أن تعف فتكبت ، ومعنى تُكبت : أنها تستطيع أن تكتم السبب الأصيل ، ليحصل تنفيس بأسباب فرعية أخرى والسبب الأصيل لا يوجد .

هذا التنفيس سيكون إثارة الفتن والقلاقل فى بيئاتها وخاصة البيئات القريبة .

فإذا كانت فتاة ولها أخ متزوج وهي لم تتزوج نحن نعرف كثيرا من المآسي من هذه المسائل ، وتأخذ فى جانبها جانب الأم ، تعكر صفو الحياة كلها ، لا بسبب أنها لم تتزوج لأن هذا السبب مكتوم والحياء يمنع من إظهاره ، ولكنه يأخذ أسباباً شتى .

أسباباً شتى نواجهها بالحلول ، ونواجهها بالعلاجات ومع ذلك لا تشفى . لماذا لا تشفى ؟! لأننا نعالج فى غير الداء .

إذن . . فالإسلام جاء ليمنع هذه الكارثة ، مادام لا فائض إلا بتعدد ، فلابد أن توضع قضية لذلك المتعدد ، لفائض ذلك المتعدد فوجد الإسلام أنه يجب أن يُشرع أن يتزوج الرجل اثنتين أو يتزوج إن اضطر ثلاثة ، أو يتزوج إن اضطر أربعة .

فإذا ما جئنا لامرأة عفت ، فإنها ستكبت .

وإذا أردنا أنها لا تعف ؛ فمع مَن يكون مَيْدانها ؟

سيكون مَيْدانها في متزوج أو في فتى لم يبلغ بعد حتى حقل مرحلة احتمال تبعات الحياة ، وبذلك تفسد المجتمع كله .

همسة فى أذن المعددين

ولماذا أبيح التعدد للرجل . . وحرم ذلك على المرأة ؟

انتهينا فى الفصل السابق إلى الرد على المسألة التى يثيرها خصوم الإسلام ليثيروا حفيظة المرأة ضد دينها ؛ فى مسألة التعدد .

وقلنا فى نهاية ما قلنا : إن التعدد لا يوجد إلا فى فائض ، وضربنا الأمثلة المتعددة على أن جنس الأنثى هو الزائد دائماً على جنس الذكورة ، سواء كان ذلك فى النبات أو فى تفريخ الدجاج .

وحين انتهينا إلى ذلك قلنا إن قضية الإسلام فى تصفية هذا الأمر قضية طبيعية لجانبين :

الجانب الأول : هو حل إشكال الفائض ، ولا أقول إشكال الفائضين لأن الفائض لم يطرأ على من شرع ولكنه بعلم المشرع الأعلى أنه سيوجد فائض فى مرحلة .

إذن . . فالفائض لحكمة ، وهذه الحكمة لجأ إليها كثير من الدول الآن حين وجدوا نقصا كثيرا فى عدد الرجال نتيجة للحروب وغيرها ، فأحبوا أن يعددوا حتى يوجد الرجل الواحد مخصبا لعدد زائد من الإناث .

وقلنا أيضاً : إن السبب فى هذه الحملة ليس فى تشريع التعدد ، ولكن فى آثار هذا التعدد فى الأسر .

فأخذوا من واقع الآثار ما ينفر من أصل الحكم وذلك تبعاته دائما تعود إلى المسلمين .

لأن المسلم الذى عدد نقول له : إنك عددت بحكم الله ، وبإباحة الله لك أن تعدد ، فهل التزمت حكم الله فى كل الأمر ؟!

أخذت التعدد بحكم الله ، فلماذا لا تأخذ العدالة بين المتعددات بحكم الله ؟!

لماذا أخذت ما يمتعك ويريحك بحكم الله ؟ وقلت : الله شرع التعدد ، وحين عددت لم تعدل ولم تقل : الله شرع العدل ؟!

إذن فقد أرحت أيها المعدد نفسك وأرحت نزواتك وإن لم تحترم الدوافع الأخرى الإنسانية فى زواجك ، فقد أخذت لنفسك المتعة ، ثم أبقيت للإسلام أثر متعتك استدراكاً ، ونقضاً ، لأن آثار تعددك كانت لأنك ضيعت حكم العدالة بين المتعددات .

ولكن لو أنك أخذت الحكمين معاً ، واحترمت أمر الله فى العدل كما احتجت إليه فى التعدد فعدلت بين زوجاتك ، لم تجد النساء اللاتى يثرن على التعدد مسارا لسخطهن ؛ لأنها ستجد حظها لم يؤثر فيه حظ الأخرى ، وعيشها لم يؤثر فيه عيش الأخرى ، وحفاوتك بها لم تؤثر فيها حفاوة الأخرى .

وأيضاً تبعات الزواج من الأولى ـ وهي الأولاد ـ لم تتأثر أيضاً لأنك عدلت فسويت بين كل الذرية .

ولكن حين تأخذ حكم الله فى التعدد ولا تأخذه فى العدل تنشأ تلك الآثار المنفرة البغيضة التى يستغلها خصوم الإسلام ، ولو أن خصوم الإسلام لم يجدوا للتعدد هذه الآثار المنفرة لما أخذوه حجة ليدخلوا منها ضد الإسلام .

فانظر أيها المسلم كيف أعنت خصوم الإسلام على الإسلام .

أعنت خصوم الإسلام على أن يدخلوا على نقض قضايا الإسلام ، ليشوهوا لا الأمر المتعلق بالمطبق ولكن القانون المطبق .

والعدالة تقضي أن لا ننظر إلى القانون من زوايا المطبقين ؛ لأن المطبقين قد يكونون طائعين وقد يكونون عاصين .

فإذا كانوا عاصين فلا تأخذ من عصيانهم حجة تبرر بها السخط على ما قنن الله من قوانين ، وعلى المسلم أن يعتبر نفسه فى كل قضية من قضايا دينه داعيا لدين الله أو صادا عن دين الله . فإن هو طبق ما أخذه عن الله من منهج بحق كان أسوة للغير فلا يجرؤ واحد أن يدخل على الدين من ناحية المتدينين ، ولا على الإسلام من ناحية المسلمين ، وأيضاً ، فإن الذى يختار بين أمرين لابد أن تكون عنده الحجة فى ترجيح أحد الأمرين على الآخر .

فالمرأة التى لم تتزوج ثم يأتي لها رجل متزوج ليخطبها ، لو أنها رأت أن تكون زوجة واحدة ووجدت لذلك مجالاً لما بقيت للرجل المتزوج ليأتي ليخطبها .

فهي قارنت بين أن تكون زوجة ثانية أو لا زوجة ، فاختارت أن تكون زوجة ثانية أو اختارت أن تكون زوجة ثالثة ، أو اختارت أن تكون زوجة رابعة .

إذن . . فالذي جعلها ترجح سبب عندها وليس عند من ينتقد ، فلا تنتقد أنت لمختار أمرا هو خير الأمور له .

لو لم يكن ذلك خير الأمور لها ، وأنها قارنت بين مساوئ التعدد وبين أن توجد بلا زوج فوجدت أن تكون زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة خير من أن تكون لا زوجة .

فامرأة اختارت الخير لنفسها فما فضول المجتمع فى أن يتدخل .

الذي يتدخل ليمنع تقول له الثانية : هات لي زوجاً لأكون الأولى فى حياته .

أو الثالثة : هات لي زوجاً لأكون الأولى فى حياته .

أو الرابعة : هات لي زوجاً لأكون الأولى فى حياته .

إذن يؤخذ بالحجة التى تلزمه فلا يتدخل فى أمر لا يعنيه .

ثم هل التعدد أمر ملزم فرضه الله أم أمر مباح ؟!

الذي لا يعجبه أن يعدد لا يعدد .

ربنا لم يلزمني حتى أن أتزوج .

فإذا قدرت على أنني أحمي أعراض الناس وأعف نفسي فلا أتزوج .

إذن . . فالتعدد ليس فرضاً ، ليس إلزاماً ، ليس من لم يعدد آثماً ، فمن رآه قبيحاً فلا يفعله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء : ٣] .

إذن لم يبح الله للإنسان أن يعدد إلا أن لم يخف أن يظلم ، فإذا خاف أن يظلم ، وخاف أن لا يعدل ؛ فلا يتزوج الثانية .

إذن فيجب أن يؤخذ الحكم بكل ظروفه وبكل ملابساته .

هذا من ناحية المرأة .

ومن ناحية الرجل : الرجل حين يعدد معناه :

أن المرأة الأولى في حياته لم تكف طموحاته ، أي طموحات : عقلية ، جنسية ، اجتماعية ، أهمها الجنسية ، لأننا لم نر واحدا يتزوج واحدة ثانية لأنها مثقفة عن الأولى . يمكن تكون أجمل ، يمكن تكون أصغر ، يمكن . . لكن أغلبها الطموحات الجنسية .

رجل رأى في المرأة التي عنده والتي تزوجها تحت ظروف خاصة لم تعد تكفيه ، ومادامت لم تعد تكفيه ؛ فقد تكون له شراسة فيمن تكفيه ، هذه الشراسة فيمن تكفيه لا توجد إلا عِرضاً لغير .

أنسمح له أن يريح نفسه في أعراض الغير ولا نسمح له أن يأتي بزوجة ثانية على مرأى ومسمع من الجميع ، امرأة محسوبة عليه ، وذريتها محسوبة عليه ، وهي منه وهو منها ، كالأولى تماماً .

وكل إنسان محسوب عليه شيء مسؤول أمام المجتمع عن تبعات ذلك الشيء .

أما إن أبحنا له في طموحاته الجنسية ألا يتزوج خليلة ، فقد نبيح له أن يتخذ خليلة .

إذن فالحلائل خير أم الخلائل خير ؟!

هذا ، هو ما يجهد بال الغربيين الآن ؛ لأنهم لا يحصرون الخليلات ، ويوحدون الحليلة ، والخليلات غير محصورات هناك ، والنساء يعرفن ذلك جميعاً ، ولذلك قالت المرأة الألمانية : « لأن أكون شريكة فى رجل مع عشر نساء خير من أكون خليلة له والخليلات فوق المئة » لماذا ؟!

لأن هذا يكون قطاعا محسوبا عليه .

فإذن التعدد زواياه من كل ناحية : من ناحية الرجل ، ومن ناحية المتعددة ، ومن ناحية المتعدد عليها : أيطلقك حتى لا يعدد ؟!

أم تظلين معه ؟!

كل امرأة عاقلة تقول : لا ، أظل معه وأكون شريكة لغيرى .

إذن فانظروا للتشريع من أى زاوية : فى المتعددة ، فى المعدد ، فى المعدد عليها .

تشريع حكيم فى كل زواياه ، ولكن يجب أن نأخذ الحكمة من كل زواياه ؛ فلا نأخذ شيئاً من الله ، ونرد منه أشياء .

فردنا لشىء واحد مما شرع الله بجوار أخذنا شيئاً واحدا مما شرع الله . الثانية تشوه الأولى ، وتكون حجة علينا عند خصوم الإسلام .

حين تكلمنا فى هذه المسألة اتسعنا فيها ، وإن لم أكن قد سئلت فى كتاب نيجريا عن هذا الموضوع ، ولكنا توسعنا فيها توسعاً آخر صحيا .

هذا التوسع الصحي - جاء من ناحية أن سائلاً سأل - كما قيل أيضاً : لماذا يجامل الإسلام الرجل فيعدد له النساء ، ولا يسوي المرأة بأن يعدد لها الرجال ؟!

فكان الجواب ما يأتى :

هل فى بلادكم توجد أماكن ليريح الشباب فيها نفسه جنسيا ؟!

فكان الجواب بالإيجاب .

فماذا احتطتم لصحة الأُناس المترددين ؟

قالوا : إننا نكشف صحيا على هؤلاء الفتيات فى كل أسبوع مرتين ، وهناك مفاجآت لا نظام لها ولا رتابة ، حتى نتأكد من الأمن الصحي للمترددين والمترددات من الرجال والنساء .

فقلت لهم : أفعلتم ذلك فى المتزوجات ؟!

فقوبل السؤال بدهشة ، وكنا فى بلجيكا ، فوبل السؤال بدهشة ، ولماذا نصنع ذلك فى المتزوجات ؟!

قلت لهم : صحيًا .

قالوا : لم يحدث صحيًا مثل هذا ، إن الأمراض الخبيثة لا نراها فى مثل هذه البيئات .

فقلت : أبحثتم عن حكمة ذلك ؟

فكان الجواب الذى نقله لي المترجم : أننا لم نبحث .

قلت : لا شك أنكم لم تبحثوا لأنكم لم تجدوا تبعات تضطركم إلى البحث ؛ ولو وجدتم تبعات فى مسألة الزواج لاضطررتم إلى الحماية الصحية فى الزوجات كما اضطررتم إلى الفحص الصحي فى النساء اللاتى يتردد عليهن الرجال .

مسك الختام
وحلو الكلام فى التعدد

قال فضيلة الشيخ الإمام :

- من أراد التعدد وجد أو لم يجد ؟! بالطبع وجد .
- الإنسانة التى رضيت أن تكون زوجة ثانية ، لو كان عندها فرصة أن تكون زوجة أولى ، هل كانت تقبل أن تكون زوجة ثانية ؟! بالطبع هى لم تجد فرصة أولى ؛ لذلك قبلت أن تكون زوجة ثانية بل وثالثة ورابعة أحياناً ؛ ورضيت بذلك ووافقت عليه بمحض اختيارها .
- لو أن النساء تتساوى مع الرجال فى العدد هل كان يوجد تعدد ؟! بالطبع إذا كانوا متساوين فيكون لكل رجل زوجة واحدة .

إذن . . التعدد ينشأ عن فائض ، هذا الفائض إن لم يصرف نكون أمام أمرين :

الأول : إما أن تعف المرأة فتُكبت عواطفها ، وحينئذٍ تكره تلك المرأة كل امرأة متزوجة .

الثاني : وإما أن تنفلت ، وتتجه إلى تصريف رغبتها فى الحرام .

- ثم قضية التعدد هل هى الآن ظاهرة تستوجب كل هذا القصف الإعلامى ، أم يستغلها المنفلتون من الدين ممن يسمون أنفسَهُم بجماعة التنوير ، وما هم إلا جماعة للتجهيل ، يحادون الله ورسوله ويجترئون على شرع الله تعالى وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم لهوى فى نفوسهم!!
- إن آخر ما وصلنا من إحصائيات تقول :

نسبة التعدد بزوجتين هو ٣٪ .

نسبة التعدد بثلاث زوجات هو واحد فى الألف .

نسبة التعدد بأربع زوجات هو نصف فى الألف .

ومعلوم أن الغريزة الجنسية قوية فى الإنسان ، وهذا نبى الله يوسف عليه السلام ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبى الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم لما وُضع فى موقف أمام امرأة تراوده عن نفسها ، ماذا فعل ؟! استعصم بالله تعالى وقال لربه : ﴿ . . . وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[1] .

فالرجل إذا لم تعد زوجته تكفيه لسبب من الأسباب ، أيلغ فى أعراض الناس ؟!

إن الجنس كلاً مُباح عند من لا يتقيدون بمنهج الله تعالى ، أما المؤمن بالله فهو دائماً ينزع إلى ما شرعه الله وأحله ، فإذا كان الله تعالى شرع شيئاً

---

(١) قال العلامة ابن كثير : أى إن وكلتنى إلى نفسى فليس لى منها قدرة ولا أملك لها ضرا ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك أنت المستعان وعليك التكلان فلا تكلنى إلى نفسى ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] الآية ، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه . فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك وهذا فى غاية مقامات الكمال ؛ إنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر وهي مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه .

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »[1] .

تفسير ابن كثير [٢/ ٤٥٩] .

---

(١) رواه البخارى [٦٦٠، ١٤٢٣، ٦٤٧٩، ٦٨٠٦] ، ومسلم [١٠٣١/ ٩١] واللفظ له عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

وأحله ، فكيف يحرمه هؤلاء الجهلانيون الذين يُبيحُون الخليلة ويُنكرون الحليلة .

إننى من خلال هذه الكلمات أهيب بفقهاء المسلمين أن يتصدوا لتلك الفئة الضالة ويردوا كيدهم فى نحرهم ، ويبينوا للناس حكم الله فى كل الأمور عامة وهذا الأمر خاصة .

كما أوصى الرجال أن يختاروا صاحبة الدين التى تُسلم لأمر ربها وترضى بحكمه وشرعه وتكون عوناً لزوجها ، وإحصاناً له من أن يلغ فى أعراض الناس .

كما أوصى نساء المؤمنين أن يكنّ كأمهاتهن وأسلافهن الصالحات العابدات التى كانت الواحدة منهن تخطب لزوجها ، بل وتتبرع بليلتها لها ، فهذا أشرف لها وأفضل من أن تكون زوجة لرجل ذى علاقات متعددة ، أو بالمعنى المتعارف عليه الآن : « زئر نساء »[1] .

❁ ❁ ❁

(١) سجلت هذه الكلمات مع فضيلة الشيخ الإمام حفظه الله تعالى فى ليلة الخميس الحادى عشر من المحرم ١٤١٩ هـ ، الموافق السابع من مايو ١٩٩٨م . [العاشر]